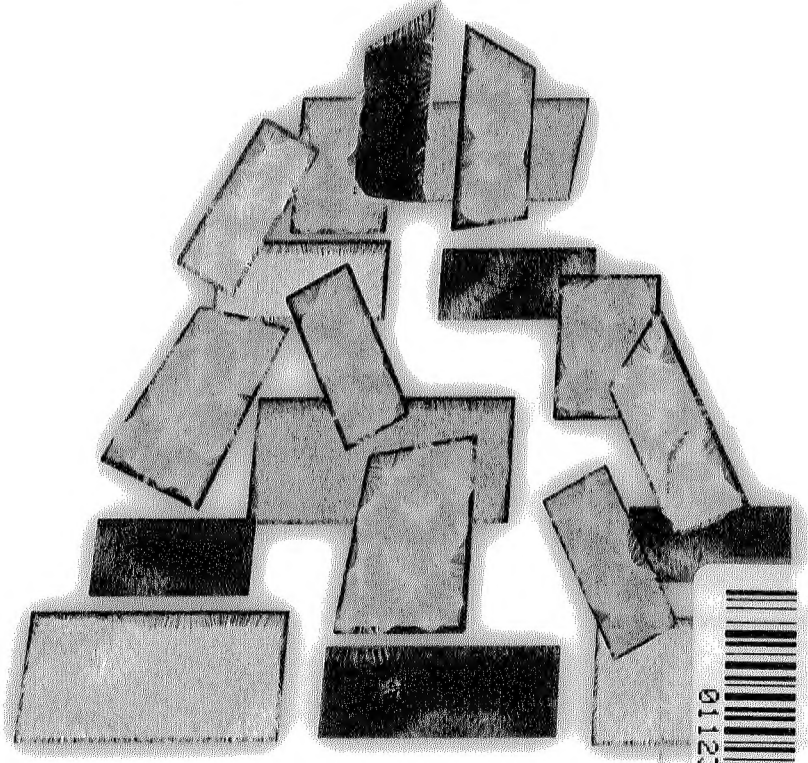


مركز الدراسات والبحوث  
للسوق الإنساني

# مصر القبطية



Bibliotheca Alexandrina



0112322

تأليف: محمود مدحت  
تقديم: د. يونس لبيب رزق  
مراجعة: د. سليمان نسيم



# مصر القبطية

المصريون يُعمّدون بالدم

محمود ملاح



الكتاب : مصر القبطية

المؤلف : محمود مدحت

الباشـر : مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان

تصميم الغلاف : نديم

تجهيزات الطباعة : وحدة التنفيذ الإلكتروني بالمركز

الطبعة الأولى: ١٩٩٨

جميع الحقوق محفوظة للناسـر

٧ ش الحجاز - روكسى - مصر الجديدة . القاهرة . جمهورية مصر العربية

تليفون : ٤٥٢٠٩٧٧ فاكس ٢٥٩٦٦٢٢ / EMAIL LRRC@brainy1 te-eg com



## الإهداء

إلى طلعت توفيق رفعت  
صديق الصبا وأول الشباب  
ما زالت روحك تحلق في سمائي

محمود مدحت





---

## مقدمة

### نهر واحد ووضفتان

أبونا ناسب بسخاروس واسم خالى جرجيوس  
وجد أمى فلتاؤوس وأنا اسمي طه أبو العلا  
بيرم التونسى

الاعتراف بالآخر، معرفة الآخر ونبذ العنف سمة حضارية رفيعة القيمة والمستوى قلما تحققت عبر تاريخ البشرية. وتاريخ البشرية هذا، الملىء بالإنجازات، حيث انتقل فيه البشر من كائنات تسكن الكهوف والأشجار بل وتسير على أربع - فى حدود معرفتنا - إلى كائن يعمل العقل ويملك الرؤية والبصيرة ويخترق الحجب والمجهول فى مغامرات علمية وفلسفية هائلة، نفذت إلى الكرة الأرضية فى عمقها وجابت الفضاء وحطت على الأفلاك، بل وغاصت فى الجسد البشري

واصطنعت عقول الكترونية مساعدة للبشر، حتى أننا نظن أن شيطان العقل البشرى لا يهدأ ولا يكل ولا يمل من الكشف والفتح والاختراع، وكأن قاطرة العقل البشري المندفعة للأمام لا تجد محطة وقوف ونهاية لها. هذا التاريخ الذي قفزت فيه المعرفة البشرية من حالة البدائية إلى حالة صناعة الحضارات القديمة والحديثة. هذا التاريخ الهائل العظيم العملاق الذي تكوّن منذ بدء البشرية، ملئ بالتطاحن والحروب والعذابات والاضطهادات بل والتفاهات والانحطاط بين البشر وبعضهم البعض إلى حد لا يمكن تصديقه في كثير من الأحيان.

صراع المصالح الضيقة من أجل الهيمنة والسيطرة درجة من غباء العقل البشرى المتبادلة بين الشعوب وبين الحكام والمحكومين لا يمكن تفسيرها إلا بسيطرة روح الغباء والأنانية والجمود ونفي الآخر إلى حد إراقة دمه والتلذذ بتعذيبه، ويصبح العنف هو الحل، والسبيل الوحيد لمعالجة الخلاف والاختلاف في الرأي أو العقيدة أو الدين أو اللون أو الجنس أو العرق. لقد أصبح من المعتاد في الأخبار اليومية السيارة أن نري بأم أعيننا ونسمع ونقرأ عن المذابح اليومية التي يذهب ضحيتها جماعات من البشر، بل ويدفن بعضهم أحياء، وسواء لأنهم مسلمون بوسنيون أو أكراد أو ألبانيون أو بوذيون أو من السيخ أو البنجاب أفغان وكشميريون وهندوس يعبدون البفر، أو مسيحيون من تيمور الشرقية، بشر من كل البلدان والشعوب والديانات، وقد يقتلون وتكسر عظامهم علي أعتاب وداخل المسجد الأقصى أو في كنيسة مصرية أو في معبد

في الهند، الأمر سيان إنه القتل علي الهوية، إنه كراهة الآخر ونبذه وتحقيق ذلك بعدم الاعتراف بالآخر وإراقة دماء الآخر. وها هي كما تبدو دون إضافة عليها، صورة من صور همجية البشر. ومن أسف أن قائمة مبررات تلك الهمجية دائماً جاهزة ومغلقة تحت ستار من الدين أو الوطن أو مصالح سياسية عليا.

وبالانتقال من حالة العمومية إلي خصوصية القضية التي يطرحها البحث الذي بين يديّ القارئ الكريم، نجد أنفسنا أمام مرحلة من عمر الوطن العزيز مصر مغيبة، بل قل تم محوها، وكأنها لم تكن موجودة، في مراحل تاريخنا المختلفة. ويكاد يتساوى جهل المثقفين والعامة بها مسلمون وأقباط. فقد خلت المناهج التعليمية وكتب التاريخ عبر أجيال وأجيال من أية إشارة حقيقية لهذه الفترة من تاريخنا. واختلط الأمر على أذهان المتعلمين والأميين بين الأسود التي أكلت بعض المسيحيين الأوائل وبين الرومان والبطالمة في صورة كاريكاتورية فاضحة، لأن الأهم دائماً كان هو القفز إلى فتح مصر. والمصريون الذين استقبلوا الفاتحين بأذرع مفتوحة وبحب لم يسبق له مثيل، وعاش المصريون بعد ذلك، ولأول مرة في تاريخهم في أمن وسلام واحتضنوا الفاتحين بكل رضاء بل وتخلت غاليبيتهم عن عقيدتهم وديانتهم، هكذا بكل سلاسة، و«فرغت الحدودة»!

ما مدى مسؤولية الدولة من خلال أجهزتها الإعلامية ومؤسساتها التعليمية؟

---

ما مدى مسؤولية المجتمع وثقافته القائمة في جانب كبير منها علي  
نبذ الآخر أو في الحد الأدنى الاستنكاف والتكاسل عن عدم معرفته؟  
ما مدى مسؤولية جماعات العنف المستترة وراء الدين؟ وما مدى  
مسئولية القيادات الدينية والسياسية من الطرفين؟ وما مدى مسؤولية  
المشرع والمؤسسة التشريعية والقوانين والنظم القائمة علي التمييز؟  
ما مدى مسؤولية المثقفين والباحثين ومؤسسات المجتمع المدني؟  
وكيف السبيل في وطن واحد وأمة واحدة وشعب واحد إلي التسامح  
الديني والسياسي وإلى لغة التعارف والحوار بين أبناء الوطن الواحد ،  
بل بين البشر؟

وأخيراً تلك الأوراق بين يديّ القارئ جزء من محاولتنا في مركز  
الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان لاستعادة احترام البشر  
لبعضهم البعض والبحث في ذاكرة المصريين المضيئة وإعادة كتابة  
تاريخ مصر دون تحيز أو تمييز.

أمير سالم





## تقديم

لأنى من أكثر الناس رفضا لتحقيق التاريخ المصرى على أساس دينى فلم أتحمس عندما طلب منى المسئولون فى «مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان» الاطلاع على هذا العمل وكتابة تقديم له، غير أنى قبلت أخيرا بعد أن أكدوا لى حرية إبداء الرأى حتى لو كان ضد الكتاب أو ضد فكرته، هذا من ناحية، وتحت إغراء أن كتابا بهذا العنوان يستحق المطالعة، والتفنيد إن أمكن، من ناحية أخرى!

قراءة الفصل الأول من هذا العمل لفتت نظرى إلى كاتب صاحب منهج، ورغم أن الأستاذ محمود مدحت ليس له سابق تجربة فى الكتابة التاريخية، على حد علمى، فإن رؤيته الشاملة واعتماده منهج المدرسة المادية فى التفسير التاريخى قد شجعنى على الاستمرار فى متابعة بقية الفصول، وإن لم يبدد مخاوفى، خاصة وأن المؤلف قد وضع لهذا

الفصل عنوانا «تاريخ مصر القبطية... لماذا الآن؟»، مما قد يوحي أن الكتاب صادر استجابة لحملة داخلية وخارجية تتهم المسؤولين عن التعليم في مصر بإهمال تلك الحقبة في التاريخ المصري التي جاوزت القرون السبعة. ومحترفو الكتابة التاريخية مثلى يتخوفون من كتب المناسبات، التي تختفى مع اختفاء المناسبة التي صدرت فيها.

الفصل الثانى تحت عنوان «التكوين الثقافى والروحى بين الطبيعة والدولة فى مصر» زاد من حماسى وقلل من مخاوفى، فقد تأكد لى أن المؤلف ذو نظرة نافذة تخترق السطح إلى الأعماق، فعلى الرغم من أنه قد اعتمد على كتابات متداولة؛ برستد، أحمد صادق سعد، سيد القمنى، غير أنه نجح فى استقراء تلك الأعمال ليربط بين ما توصلت إليه ويصل إلى نتائج جديدة تتفق مع مفهومه لتاريخ مصر القبطية.

الفصلان الثالث والرابع أجهزا على بقية ما عندى من تحفظات أو تخوفات، خاصة الثانى منهما الذى يشكل فى تقديرى العمود الفقرى لهذا العمل، ولعل ذلك ما دعا المؤلف إلى أن يخصص له الجانب الأكبر من الكتاب، ولعل ذلك ما أدخل فى روعى أن بقية الفصول ليست أكثر من دراسة تمهيدية لما جاء فى هذا الفصل الأخير.

السبب فى تبدد المخاوف بعد الانتهاء من قراءة هذا الفصل يعزى فى جانب منه إلى أن المؤلف قد نجح من خلال سطره أن يؤكد على تاريخ المصريين وليس على تاريخ الكنيسة القبطية، وفى جانب آخر أنه



---

عندما تناول تاريخ تلك المؤسسة كان حريصا على إبراز دورها الوطنى  
ولم يعزلها عن السياق التاريخى العام للوطن.  
والكتاب عموما يعرض لتلك الفترة الخلافية بين المؤرخين، وفى  
تقديرى أن الأستاذ محمود مدحت نجح فى تقديم إسهامة هامة فى هذا  
الشأن.

دكتور يونان لبيب رزق



## مراجعة

بقلم دكتور سليمان نسيم

هذا كتاب جديد عن حقبة هامة من حقب تاريخنا المصرى القومى العام هي الحقبة القبطية التى يشهد كثير من المؤرخين - مصريون وأجانب- أنها لم تدرس بعد الدراسة الواجبة، ولم تنشر كل مصادرها، ومازال قدر كبير منها في عداد الوثائق التى هى فى حاجة إلى مزيد من التحقيق والنشر. يقول دكتور باهور لبيب، أحد الباحثين المتخصصين فى دراسة هذه الحقبة وعلاقتها بتاريخ مصر القديمة، إلى جانب أنه المدير الأسبق للمتحف القبطى :

« جرى المؤرخون على أن يربطوا التاريخ القبطى بالمسيحية فى حين أنهم لم يروا فيه إلا الناحية الدينية وهى ناحية قد أثرت بلا شك على الكثير من نواحي التفكير المصرى، ولكن الواقع أن العصر القبطى هو عصر أهم خصائصه ظهور الشعب المصرى على صفحة التاريخ

بعد أن انقضى عصر الحكام الوطنيين فضلا عن أنه لم ينته بدخول العرب مصر في القرن السابع الميلادي بل امتد في بعض النواحي إلى ما بعد هذا القرن»<sup>(١)</sup> ثم يضيف «ويعتبر هذا العصر الغموض كما تنقص الدقة والإنصاف من أرخ له من الأجانب والمصريين على السواء»<sup>(٢)</sup>، هذا الرأي يؤكد الأستاذ الدكتور حسين فوزي في كتابه «سندباد مصرى» بقوله «إن تاريخ مصر، في طريقة كتابته، مازال شذريا مقطعا لا نرى في فصوله أكثر من التتابع التاريخى.... والقارئ العام لا يجد بين يديه تاريخا للحقبة المسيحية يبسط له أمور العقيدة، لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول فى بعض التفاصيل، كما يتحرج المؤرخ القبطى من التبسط فيها إذا كان يكتب لمواطنيه جميعا، وغالبيتهم من المسلمين، وبذلك ظلت الحقبة المسيحية فى شبه ظلام تاريخى»<sup>(٣)</sup>. من هنا تأتى محاولة الزميل محمود مدحت فى التأريخ لهذه الحقبة فى كتابه «مصر القبطية - المصريون يعمدون بالدم» جديرة بالتقدير : أولا لما بذله فيها من جهد، وثانيا لطبيعة الظروف التاريخية التى تمر بها مصر فى الفترة المعاصرة، وثالثا لأنه حاول أن يطبق المنهج التاريخى فى بحثه فوضع أمامه مجموعة من الأسئلة، وإن لم يشر إليها صراحة، إلا أن المادة التى عرضها جاءت إجابة عنها تحت العناوين التى انتظمها الكتاب. هذه الأسئلة فى رأى هى :

١ - ما طبيعة الظروف التاريخية التى يصدر فيها هذا الكتاب؟ وقد عبر المؤلف عن هذا السؤال بسؤال آخر هو : تاريخ مصر القبطية.... لماذا الآن؟

- ٢ - كيف أسهم التكوين الثقافي والروحي بين الطبيعة والدولة في مصر في تكوين شخصية مصر وتحديد سماتها المتميزة؟
- ٣ - ما العوامل التي شجعت المصريين على قبول المسيحية واعتناقها، ثم الاستشهاد في سبيلها؟
- ٤ - ما أسباب اضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين عامة وفي مصر بوجه خاص؟
- ٥ - كيف واجه المصريون هذا الاضطهاد؟ وكيف خرجوا منه منتصرين؟

وفي إجابته عن هذا السؤال الأخير اختار تعبيراً عقيدياً من أحد أسرار الكنيسة المصرية وهو «المعمودية» بقوله «المصريون يعمدون بالدم منذ منتصف القرن الأول الميلادي».

فإذا بدأنا بالمنهج الذي اتبعه المؤلف وجدناه يوضحه بوصفه منهج البحث التاريخي «الذي يرى في التاريخ علماً يعنى بدراسة البشر في مجتمع ما بطريقة التحليل والتفسير، وتبين الآثار التي نتجت عن الأحوال السياسية والاقتصادية لهذا المجتمع والأسباب التي أدت إليها ومدى علاقة القوى الاجتماعية وتناميها في لحظة معينة». كذلك يأخذ المؤلف بنظرية أن «التاريخ في الأساس تصنعه الشعوب». وإذن فهو لا يكتب التاريخ من منطلق عاطفي، وهو مزلق كثيراً ما يقع فيه كثير من الباحثين، وإنما يكتبه متحريراً أسباب الظواهر السياسية والاقتصادية، مع

إلقاء الضوء على القوى الاجتماعية وعلاقاتها، ومدى تناميها وتأثيرها في المسار الحضارى للشعب. ولكي يربط بين المسار الحضارى في مصر القبطية وبينه في الحقب السابقة عليها : مصر القديمة، مصر اليونانية، ومصر الرومانية، فقد عالج في حوالى الخمسين أحوال مصر خلال هذه العصور مستعرضا التطور الطبيعى والبيئى والجغرافى الذى حدث في مصر منذ أقدم العصور وكيف واجهه المصريون إيجابيا بحيث أصبحت مصر هبة المصريين وليست هبة النيل وحده. أما علاجه للمرحلتين الإغريقية والرومانية فقد جاء من منطلق يقينه بأن «مراحل التاريخ وحلقاته مترابطة تفضى كل منها إلى الأخرى بحكم «قانون التراكم» الذى يفسر لنا أسباب التحولات التاريخية». وأثناء علاجه لهذا الماضى، ومحاولته الربط بين هذه الحقب المتتالية، عمل على أن يربط بين المقدمات والنتائج ليصل إلى السمات التى ميزت الشعب المصرى واستمرت معه على امتداد العصور. إنه يرى أن ثمة «تجانسا بشريا ميز المجتمع المصرى منذ القدم وأضفى على الوادى سلاما واستقرارا»، وأن هذا المجتمع تميز بالعمل الجماعى المشترك -على ضوء ظروفه الجغرافية والبيئية - لتحقيق أعلى استفادة ممكنة من النهر ومن هنا كان «خلق الدولة المركزية القوية ضمانا لاستمرار تقدم المجتمع واستمراره من خلال نظام رى يضمن عدالة توزيع المياه وتحقيق ما أسماه بالوفرة فى الإنتاج». ثم ينتقل بعد ذلك إلى النتائج حيث وصل إلى «قيام الوازع الخلقى، وكيف أصبح الإنسان المصرى

إنسانا محبا للخير هادئا مطيعا مسالما يرفض الشر والظلم» مما كان وراء تشكيل الديانة المصرية القديمة» التي آمنت بالبعث والحياة بعد الموت ثم بالحساب أمام الآلهة لتصل في بعض مراحل تطورها إلى فكر الوجدانية في مقابل التعددية.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى السؤال الثانى حول الظروف التاريخية الراهنة التى يصدر فيها المؤلف كتابه جاءت إجابته عنها فى المسلمات الآتية :

١ - إنه منذ سنة ١٩٧١ بدأ السعى حثيثا لإطلاق قوى التدين فى عالم السياسة وقد اتخذ هذا السعى ثلاثة مظاهر :

أ - إضافة لقب مؤمن إلى رئيس الدولة.

ب - تعديل نص الدستور باعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.

ج - اطلاق كلمة فتنة طائفية على ما حدث بالخانكة واتخاذة ركيزة لإصدار عدة قوانين استثنائية.

ومن ذلك الوقت وضح بعث القوى المتشحة فى أدائها السياسى بالدين مما أدى إلى حدوث انقسام واضح فى حقول الفكر والثقافة بين الجماعة المصرية. هذا الانقسام ظهر حينما فى أشكال التطرف، وانحسر حينما آخر تحت تأثير تصادمه مع قوات الأمن لكنه لا يزال موجودا وفعلا وإن بدا أن شوكته قد ضعفت إلى حد كبير.

ومن المؤثرات التاريخية، أيضا، التي دعت المؤلف إلى دراسة الحقبة القبطية «تحدث الدوائر الاستعمارية عن حالة الأقباط في مصر والاضطهاد والتمييز الذين يتعرضون لها. هذا الحديث الاستعماري - فيما يعرف بالاضطهاد والتمييز الديني ضد الأقباط - ليس سوى محض ضلالة وتضليل لصرف نضال الشعب عن مبتغاه في الحريات الديمقراطية الأوسع والأشمل».

على أن ثمة أسبابا أخرى دعت المؤلف إلى بحث هذه الحقبة :

١ - إن مصر القبطية لم تكن فترة منقطعة في تاريخ مصر فلم تكن رومانية ولا بيزنطية. والمؤلف هنا يلفت النظر إلى أنه قد بات مطلوبا - ونحن نتناول بالدراسة تاريخنا القومي المصري العام - أن ننسب عصوره المتوالية إلى الشعب لا إلى الحاكم أى لا نقول العصر الروماني - البيزنطي وإنما الأجدر أن نقول العصر القبطي<sup>(٤)</sup>.

٢ - إن إغفال هذه الفترة التاريخية الهامة والحيوية في تاريخ مصر لا يزال سائدا حتى الآن.

٣ - إن كتبنا التاريخية قاصرة من حيث منهجها وطريقة عرضها عن تحليل هذه الفترة التاريخية مع أن تاريخ هذه الحقبة من متطلبات إدراك المواطن المصرية وإحياء الذاكرة الوطنية.

٤ - إن هذه الحقبة هي نقلة نوعية شكلت تمسك المصريين بثقافتهم وقوميتهم.



٥ - إن نشر وإشهار تاريخ مصر القبطية يكاد أن يكون درعا أساسيا في مواجهة محاولات التفريق بين المصريين، فالكنيسة المصرية منذ نشأتها كانت دولة داخل الدولة وقد ردت الحياة - في مقاومتها الباسلة ضد الرومان - إلى ملامح شخصية مصر الحضارية.

٦ - إن اسقاط نحو ثمانية قرون من تاريخنا القومى العام ليس بالأمر السهل لكن من الذى يتحمل وزر هذا التقصير؟

فإذا سمح لى المؤلف أن أضيف إلى هذه الأسباب ما كان أستاذنا المؤرخ الكبير دكتور عزيز سوريال يطالعنا به فى محاضراته عن الحقبة القبطية<sup>(٥)</sup>، وجدناه يؤكد لنا على أهمية دراستها من ثلاث نواح رئيسية :

الأولى : الأهمية الموضوعية

الثانية : الأهمية الأخلاقية

الثالثة : الأهمية الإنسانية أو الحضارية العامة.

فمن حيث الأهمية الموضوعية باعتبار هذه الحقبة جزءاً لا يتجزأ من تاريخنا القومى، وقطعة خالصة من صميم تطوره، فقد حققت الكنيسة المصرية خلالها استقلال مصر الدينى وازدادت عن هذا الاستقلال من خلال باباواتها الذين تمثلت فيهم بحق شخصية مصر المعنوية ثم من خلال شهادتها الذين افتدوها بدمائهم أمام المحتل الرومانى المغتصب فى مرحلته الوثنية حتى سنة ٣٨٧م أو فى مرحلته المذهبية حتى دخول العرب مصر سنة ٦٤١م.

أما الأهمية الأخلاقية فلمسو ما قدمت مصر من نماذج روحية وإنسكية تمثلت في آباء الرهبنة الذين هم نبت مصرى صميم. كذلك تتمثل هذه الأهمية في قدوة الآباء والمعلمين والشهداء والرعاة الذين عاشوا القيم المسيحية عمليا بل واستشهدوا في سبيلها.

تأتى بعد ذلك الأهمية الحضارية التى تمثلت فى العطاء الإنسانى اللاهوتى والفكرى والفنى الذى قدمته الكنيسة المصرية الوطنية للعالم ممثلا فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية بأبائها وأساتذتها وطلابها الأمر الذى جعل من مصر عقل العالم المسيحى. يضاف إلى ذلك رئاسة البابوات المصريين للمجامع المسكونية التى كانت تجتمع للنظر فى قضايا الإيمان والمذاهب اللاهوتية لتضع الحدود والمعايير اللاهوتية السليمة وفى مقدمتها قانون الإيمان الذى وضعته نخبة فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وكان على رأسها الشماس المصرى أثناسيوس وهو القانون الذى اعتبر على امتداد العصور نقطة البدء فى الاعتراف بالإيمان المسيحى فى كل كنائس العالم على مختلف عقائدها.

من هنا تأتى أهمية دراسة هذه الحقبة باعتبارها الجسر الحضارى بين مصر القديمة ومصر العربية أو مصر العصور الوسطى ممتدة حتى أزمنتنا الحديثة والمعاصرة. وبدون دراستها يتهدأ تاريخنا القومى العام ويصبح شذرات ناقصة غير متماسكة. إن التاريخ ليس مجرد ماضٍ ومجموعة أحداث انتهت لكنه علم يطبق عليه ما يطبق على بقية العلوم من منهج: يعرض للموقف، ويتناوله بالتحليل للكشف عن أصوله ثم

تتبع نتائجه. ولأن بلدنا مصر وعاء لتراث تاريخي عريض وشامل فلا يجوز فصل سياقه أو تتابعه فالتاريخ هو ذاكرة الأمة وأمة بلا ذاكرة هي أمة بلا رؤية. ذلك أن الذاكرة - كما يقول د. مصطفى الفقى - هي ملف الماضى، أما الرؤية فهي ملف المستقبل يربط بينهما الحاضر بكل ما له وما عليه. من هنا فإن الحقبة القبطية شأنها شأن الحقبة المصرية القديمة، والحقبة العربية الممتدة على طول ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصور الوسطى؛ لا تزال، كشقيقتيها الحقتين الآخرين، حية فينا: فى لغتنا التى نتحاور بها، وفى عاداتنا وتقاليدها، وفى الكثير من صور حضارتنا المعمارية والفنية والفكرية فكما يطل علينا معبد مصر القديمة بمسلته، تطل علينا كنيسة الحقبة القبطية بمنازلها، كما تطالعنا المساجد بمآذنها؛ وهكذا تحتضن مصر سائر الحضارات التى توالى عليها فتمكنت من هضمها، واستيعابها وتمثلها فى شكل مصرى خالص يجعل منها مع مرور الأيام إضافة جديدة إلى الأشكال الحضارية والثقافية سواء السابقة عليها أو اللاحقة من بعدها مما يشكل بحق روعة الإنجاز المصرى.

فإذا انتقلنا مع المؤلف بعد ذلك إلى العوامل التى شجعت المصريين على قبول المسيحية وجدناه يلخصها فيما يلى :

١ - شعورهم بسمو مبادئها وتباينها شكلا وموضوعا عن المبادئ السلوكية والأخلاقية فى المجتمع الرومانى.

---

٢ - تدهور الديانة المصرية القديمة مما أوجد فراغا وجدانيا كبيرا في نفوس المصريين .

٣ - لم تصلح الديانة اليهودية ملاذا للمصريين لما تميزت به من عنصرية كانت أهم وأبرز سماتها أن اليهود وحدهم هم شعب الله المختار وإن كنا سنلاحظ أن فقراء اليهود من سكان مصر - وخاصة الإسكندرية - لم يتأخروا عن اعتناق المسيحية .

٤ - تعدد نقاط اللقاء بين المسيحية والفكر الدينى المصرى القديم ومنها:

أ - فكرة التثليث عند قدماء المصريين كما تجلت فى أوزيريس وإيزيس وحوريس ومعروف أن المسيحية تؤمن بالاله الواحد ذى الثلاثة أقانيم مع اختلاف المضمون الروحى واللاهوتى بين العقيدتين .

ب - فكرة البعث والخلود والحساب بعد الموت .

ج - فكرة المعمودية فى المسيحية ناظرتها رش الماء المقدس على رأس الملك فى مصر القديمة عند تتويجه .

د - علامة الحياة عند قدماء المصريين قريبة الشبه من علامة الصليب الذى يتخذه المسيحيون شعارا لهم .

هـ - ولادة العجل أبيس من نفخة من روح الاله آمون فى عجلة بكر تلتقى مع المسيحية فى عقيدة ولادة السيد المسيح بحلول الروح القدس، روح الله، فى السيدة العذراء .

بذلك اتصلت المسيحية، فكريا، بالخمائر الكامنة في وجدان المصريين للديانة المصرية القديمة والتي مع ضعفها تحت تأثير غزو الشعوب القريبة لمصر : ليبينون - آشوريون - فرس - إغريق - رومان إلا أن تقاليدها وطقوسها ظلت كامنة في نفوس المصريين تنتظر اليوم الذى تصحوف فيه وهذا ما تحقق بمجىء المسيحية إلى بلادهم على يد القديس مارمرقس الإنجيلي حوالى سنة ٦٠ م.

على أن ما اقترن بهذه العوامل جميعا من صور تضحية الشهداء وعمق تمسكهم بالدين الجديد كان ذا أثر قوى فى نشر هذا الدين وفى إقبال المصريين على اعتناقه إذ استنهض فيهم ليس فقط الروحانيات التى تميز بها أجدادهم وإنما روحهم القومية أيضا فى مقاومة المحتل الغاصب الذى أنزل بهم - مع انحلاله وتدنى سلوكه وأساليب القسوة فى معاملتهم - كل ألوان المذلة والهوان سواء فى تمييزهم كعبيد وأجراء عن المواطنين الآخرين : اليونان - واليهود، أو فيما فرض عليهم من ضرائب كانوا يهربون بسببها من أراضيهم، أو فى تعريضهم للتعذيب صلبا وقتلا وحرقا ومصادرة لأموالهم وهدموا لكنائسهم وإبادة لقياداتهم الكنسية ..... مما جعلهم يزدادون تمسكا بدينهم الجديد، ويتناهون فى إذاعته والاستشهاد فى سبيله.

لكن لماذا اضطهد الرومان المسيحيين؟

١ - لقد اعتبروا المسيحية ثورة اجتماعية خطيرة فيما تمثل من رفض المصريين عبادة الامبراطور، أو تقديم الذبائح له، وكذلك في رفض تولي المناصب العامة، والطاعة أحيانا لأوامر إبادة الأعداء في الحرب كما حدث مع القديس موريس الذى استشهد مع كتيبته الطيبية سنة ٢٨٥م حين عصا أوامر الإمبراطور ديسيوس لإبادة إحدى قرى سويسرا وكان موريس قد رفض التضحية (تقديم الذبيحة) لآلهة الرومان الوثنية. ولا يزال تمثاله يقف فى أحد الميادين العامة فى «سان موريتز» بسويسرا<sup>(١)</sup>.

٢ - كذلك شجب المسيحيون سلوك الرومان وخلقياتهم، وأبوا أن يعملوا فى المسارح أو الملاعب الرومانية التى استقالوا من عملهم بها بينما سعت الكنيسة إلى تشجيعهم على ذلك وإيجاد أعمال بديلة لهم.

٣ - كذلك رفض المسيحيون مبدأ استعباد الشعوب العاجزة وبيع الرقيق والجوارى فيما مثل إهدارا جسيما للكرامة الإنسانية.

وكنتيجة لهذا التباين الحاسم فى المبادئ والسلوكيات بين الثقافة والحياة الرومانية والثقافة والحياة المسيحية جاء اضطهاد المسيحيين وحرمانهم من المواطنة وإنزال ألوان العذاب والظلم بهم.

وبالرغم من ذلك كله ضمد المسيحيون، وانتشرت ديانتهم انتشارا واسعا فى أنحاء العالم الرومانى، وحمل المصريون لواء الكرازة بها فى بلادهم وخارج بلادهم فكان أن تحقق البروز العلنى للكنيسة المصرية

التي لم تلبث أن تحولت إلى مؤسسة قومية ودينية لها نظامها الرعوى المتين، وسلطانها الكنسى والدينى والتعليمى إذ لم تشغلها نيران الاضطهاد عن الدفاع عن الإيمان خاصة فى المجامع المسكونية بعد أن أصدر الأمبراطور قسطنطين مرسوم التسامح الدينى سنة ٣١٣ م.

ولقد عالج المؤلف هذه العناصر فى وفاء وإن كان قد اختصر بعض الشيء فى دراسة لدور مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وكذا فى أثر الرهبانية والديرية المصرية سواء فى حفظ التراث الإنسانى الدينى أو فى الدفاع عن الإيمان ضد الاضطهاد من ناحية وضد الهرطقات من جانب آخر. وبينما أعطى للتنافس بين الأسقفيات (يقصد الإسكندرية، وروما والقسطنطينية) عنوانا خاصا، كما أعطى عنوانا آخر لأريوس وأثناسيوس نجده لا يعطى أى عنوان : للغة القبطية وآدابها، والمدرسة اللاهوتية وآبائها ومعلميها ومناهجها، والرهبنة والديرية ومؤسسيها ودورها الحضارى والتعليمى. كذلك فى دراسته لمحنة الاضطهاد كنت أرجو أن يذكر لنا بعض نماذج الشهداء والشهيدات، خاصة أولئك الذين استشهدوا من الطبقة الشعبية العامة وبالأخص لأن هذا يتفق ونظريته فى المنهج التاريخى الذى أخذ به وهو أن الشعب هو صانع تاريخه. أما عن تعداد المصريين فى الحقبة القبطية فقد ذكر مرة أنهم يبلغون ثمانية ملايين من بينهم مليون يهودى بينما يذكر فى مرة ثانية أن عدد أقباط مصر تناقص من عشرين مليوناً إلى عشرة ملايين. وإنما أذكر هذه الملاحظات لأن تاريخ المدرسة اللاهوتية، وتاريخ الحركة الرهبانية ثم

الديرية كان يمكن توظيفه توظيفاً تاريخياً في السياق العام الذي وفق المؤلف في عرض جوانبه توفيقاً واضحاً.

فإذا جئنا إلى خاتمة هذا التقديم فمن الضروري أن نشير إلى حسن الختام الذي ختم به المؤلف كتابه في عرضه للصراع المذهبي بين الكنيسة المصرية خاصة في عهود الآباء القديسين اثناسيوس وكيرلس وديوسقورس والكنيستين اللتين اتحدتا ضدها في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ وهما كنيسة روما والقسطنطينية. إنه يؤكد ثبات الكنيسة المصرية على إيمانها ومبادئها الأرثوذكسية - أي المستقيمة الرأي - فيقول «إن كل إجراءات نفي القديس اثناسيوس حتى ديوسقورس استهدفت في الحقيقة كسر شوكة أولئك البطاركة الذين برزوا كزعماء دينيين من جهة وزعماء للشعب المصري من جهة أخرى. ويتابع الكاتب محمود مدحت تأكيد رأيه عن صمود الكنيسة المصرية، بأبائها وشعبها، بأنها «حققت استقلالاً نهائياً عن سيطرة الإمبراطورية» وبأنها أصبحت ذات مكانة كبرى بين كنائس العالم المسيحي بالرغم من تبعيتها سياسياً للدولة البيزنطية ومن هنا فما كانت روما والقسطنطينية لترضيا بأن تسموا الإسكندرية إيمانياً وعقيدياً وإذن وجب وقف طموحاتها ومن هنا كانت مأساة مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م التي لم تعبر إلا عن أصالة المصريين في الدفاع عن خصوصيتهم الإيمانية مما شمل ضمناً الحرص على استقلالهم القومي والروحي. وهكذا جاء عزل مصر القبطية الأرثوذكسية عن هذا الانحراف الذي ارتكبته روما



والقسطنطينية خاصة بعد أن تجدد الاضطهاد فى عصر هرقل على يد ممثله فى مصر كيرس Cyrus أو كما عرف خطأ فى هذا المرحلة التاريخية بأنه المقوقس عظيم القبط فلم يكن هذا الحاكم سوى رجل غريب جاء يعصف بالكرامة المصرية وينزل بالكنيسة المصرية كل ألوان القتل والتعذيب حتى إذا ما كان دخول العرب مصر سنة ٦٤١ أعادوا، على يد قائدهم عمرو بن العاص، البابا بنيامين إلى كرسيه معززا مكرما، ومعلنا انتهاء دور هام من أدوار تاريخ الحقبة القبطية ليدخل الأقباط وكنيستهم دورا جديدا تحت حكم الإسلام.

شكرا للمؤلف جهده فى تأليف هذا الكتاب المهم الذى أعتقد أنه إضافة موفقة، جاءت فى وقتها المناسب، إلى المكتبة المصرية، وأرجو أن يواصل دراسته المنهجية لهذه الحقبة بعد الفترة التاريخية التى وقف عندها فالحضارة القبطية لم تقف - كما ذكرنا - عند حد دخول العرب مصر وإنما تعدت ذلك إلى يومنا هذا.

السبت ٤ إبريل سنة ١٩٩٨

## المراجع:

- (١) تاريخ التربية القبطية - المقدمة - دار الكرناك - القاهرة - سنة ١٩٦٣ .
- (٢) المرجع السابق .
- (٣) سندباد مصرى - القاهرة - سنة ١٩٦١ - ص ١١٦-١١٨ .
- (٤) راجع فى هذا الموضوع : سليمان نسيم - تاريخ التربية القبطية - القاهرة - دار الكرناك - سنة ١٩٦٣ - ص ٣٢ ولعل من المناسب هنا أن نقتبس عبارة الأستاذ أمين الخولى عن الشخصية المصرية الدينية ، أنها قد هيات لمصر المشاركة فى الأديان الكبرى بمعرفتها ولقائها وتقبلها فى أناة ويقظة ، وتمكينها من الحياة فى بيلتها الاعتقادية ثم الوقوف إلى جانبها بعد التمثيل الصحيح لها ووقوف المستشهد العميق الإيمان ، ( تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثانى - الجزء السابع - ص ٥٣٦ ) .

(5) The Coptic Encyclopedia - New York- Macmillan Publishing Company. 8 Volumes, 1991

وراجع أيضا :

- Aziz S. Atiya, A History of Eastern Christianity, London, Methueno Co Ltd, 1968, P.P. 1-168.
  - المجلة التاريخية المصرية - مجلد ٣ - عدد ١ - سنة ١٩٥٠ ، مجلد ٤ - مايو سنة ١٩٥١ مقال د. عزيز سوريال عن الدور القومى للكنيسة القبطية فى العصر البيزنطى .
- (6) Aziz S. Atiya - Op. Cit. P.P. 29-31, P. 54.





## مقدمة المؤلف

برزت على الساحة المصرية منذ عام ١٩٧١ مظاهر متعددة، كان من بينها مظهر يطعن - فى الصميم - مبدأ الوحدة الوطنية، ذلك المبدأ الذى ترسخ منذ ثورة ١٩١٩، التى أعلنت شعار «الدين لله والوطن للجميع» فى مواجهة محاولات شق الحركة الوطنية المصرية، تلك المحاولات التى سعت بريطانيا آنذاك لتضمينها فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ حيث نص التصريح على حق حماية الأقليات كشرط من شروط منح مصر الاستقلال والحماية.

وعلى امتداد خمسين عاماً باءت محاولات إضفاء الصبغة الدينية على الحكم بالفشل، وبالرغم من أن دستور ١٩٢٣، كأول دستور قدر للأمة المصرية أن تستند إليه، قد تضمن نصاً يحدد الدين الرسمى للدولة، إلا أنه تعرض للانتقاد<sup>(١)</sup>.

ولا يمكن لنا أن نغفل المعارك الفكرية المتعددة التي جرت بين محاولات تديين السياسة ومحاولات الفصل بين الدين وبين الحكم، تلك التي جرت على مدى هذه الاعوام، إلا أنه ومنذ عام ١٩٧١ بدأ السعى يمضى حثيثاً لإطلاق قوى التدين السياسى ابتداء من إضافة لقب «المؤمن» إلى لقب رئيس الدولة، ووصف ما جرى فى مدينة الخانكة بأنه فتنة طائفية واتخاذة ركيزة لإصدار عدة قوانين استثنائية، وتسمية الدولة ذاتها بأنها دولة العلم والإيمان، وأخيراً وليس آخراً تعديل نص الدستور بقرار من رئيس الجمهورية باعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع<sup>(٧)</sup>.

لقد جرت أحداث كثيرة استخدمت فيها النصوص الدينية الإسلامية للتبرير وإضفاء قوة على الكثير من الاجراءات الاستثنائية، أو مواجهة قوى سياسية رافضة لسياسات الحكم آنذاك.

ترافق مع كل ذلك تحولات عميقة فى الأوضاع الطبقية والاجتماعية للشعب المصرى، حيث تم إعادة تشكيل البناء الطبقي فى مصر لتسود قمته رأسمالية جديدة جاءت قوتها مما حملته إليها طاحونة البرجوازية البيروقراطية عبر السنوات الممتدة منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٤، وساعد على تبلور قوتها أيضاً مجموعة من الاجراءات والقرارات اصطلح على تسميتها فيما بعد بسياسات التكيف الهيكلى والتي اعتمدت وصفات صندوق النقد والبنك الدوليين مرجعها ومرشدها.

وقد أفضت تلك المحاولات إلى طرد قطاعات واسعة من الشعب المصرى إلى خارج نمط الإنتاج السائد، فخرج الكثيرون إلى بلاد النفط، ليعودوا حاملين قيم ثقافات مغايرة تجاوزها الشعب المصرى وتجاوزتها الثقافة المصرية منذ أمد بعيد، كذلك أصبح كثيرون آخرون يعيشون كمهمشين، يفتقدون كثيراً من الحقوق أبرزها حق العمل والذي كان يعتبر فى الستينيات «حق واجب وشرف وحياة»<sup>(٣)</sup>.

ظهر فى الوقت نفسه - وكنتيجة مترتبة على عمليات الطرد- ما يسمونه زيفاً «الأحياء العشوائية» التى أصبحت معقلاً لمختلف أنواع التدنى الاجتماعى ومرتعاً للجريمة، وظهيراً لممارسات ودعايات التديين السياسى.

وعلى صعيد الحياة السياسية فقد شهدت فترة السبعينيات تمللاً واضحاً من مختلف القوى الاجتماعية وتعبيراتها السياسية، حتى من داخل الطبقة الحاكمة المهيمنة آنذاك وكانت أبرز التمللات والحركات الاجتماعية قد خرجت من قبل القوى الحية فى المجتمع، العمال والبرجوازية الصغيرة، حيث افتتح عمال الكوك والحديد والصلب فى صيف ١٩٧١ و ١٩٧٢ أول الإضرابات العمالية المعلنة والتى اتسعت فيما بعد لتمتد إلى المناطق الصناعية فى المحلة الكبرى وغيرها.

كما اتسعت تلك الحركات الاجتماعية لتشمل قطاعات واسعة من الطلاب الجامعيين انتظمت فى حركة واسعة متبنية القضايا الرئيسية

للمجتمع المصرى، ألا وهى القضايا الوطنية والديمقراطية، وقضية الاشتراكية والعدل الاجتماعى.

لقد بلغت تلك الحركات الاحتجاجية ذروتها فى يناير عام ١٩٧٧ إبان الانتفاضة المجيدة والتى سرعان ما أجهضت بفعل تلقائيتها وبفعل الاداء السياسى والقمعى للطبقة الحاكمة آنذاك وأيضاً بفعل القصور السياسى والتنظيمى للقوى السياسية الأكثر جذرية فى معارضتها للسياسات المتبعة.

لقد واجهت الطبقة الحاكمة حالة التملل والاحتجاج والتحريك العفوى هنا وهناك بإصدار القرارات بإنشاء المنابر السياسية ثم الاحزاب، التى عبرت شكلياً عن الوسط واليمين واليسار، والخاضعة فى نفس الوقت لهيمنتها بحكم القوانين المنظمة للأداء الحزبى وبحكم القيادات التى وضعت على رؤس تلك الاحزاب.

من ناحية أخرى كان الإعداد يجرى متزامناً لإطلاق قوى أخرى فى مواجهة هذا التملل لصرفها عن استكمال تطورها واضطرابها المتنامى نحو تكوين حركة عامة ومنظمة، فتم بعث القوى المتشحة فى أدائها السياسى بالدين، وبدأت منذ اليوم الأول لبعثها فى اعتماد العنف سبيلاً لمواجهة القوى السياسية الأخرى، بل لقد وصل الأمر لأن طالت شخصيات ومؤسسات النظام نفسها، فقد كان العنف سبيلها لمواجهة



الحركة الطلابية فى الجامعات المصرية، ثم انتقل سريعاً إلى مؤسسات الحكم ذاته فى حادث الكلية الفنية العسكرية، ثم اغتيال الشيخ الذهبى وزير الأوقاف الأسبق.. إلخ.

لقد كان إطلاق هذه القوى بمثابة اللعب بالنار فى منطقة قابلة للحريق، فتلك القوى لم تكن لتكتفى ببروزها على سطح الحياة السياسية، متقدمة لأبناء المجتمع المصرى ببرنامجه (ذلك الذى لم يحدث أبداً)، إنما حرصت منذ يومها الأول وبحكم خطابها المعلن والمضمر على إبراز وجهها الدميم باصطناع تناحر طائفى بين أبناء الأمة الواحدة، ولم تكتف بنفى الآخر السياسى، وإنما سعت بحكم مقولاتها وآدائها إلى نفى الآخر الدينى وهو ما يهدد بالخطر الجامح الكيان المصرى الوطنى التليد الراسخ عبر آلاف السنين، وقد بدا هذا واضحاً وجلياً فى تصريحات أحد قادة هذه القوى، الذى نفى صراحة وضماً حق المواطنة عن مواطنين مصريين بحكم القانون والدستور، وبحكم الوجود بقوة المولد والوجود بقوة الفعل فى البنيان الوطنى.

وتأتى الطامة الكبرى المترتبة على هذا الأداء السياسى والذى أفضى إلى انقسام واضح فى حقول الفكر والثقافة فضلاً عن المجتمع نفسه، حين تتحدث الدوائر الاستعمارية والتى وقفت طويلاً ولا زالت فى وجه المصالح الوطنية والقومية للشعب المصرى، وفى وجه استقلاله وتقدمه وازدهاره، عن حالة الاقباط فى مصر والاضطهاد والتمييز اللذين يتعرضون له والتهديد باتخاذ إجراءات تستهدف حمايتهم، وهى إجراءات كما هو معروف ومجرب وراسخ فى ضمير وعقل ووجدان

المصريين جميعاً - لا تستهدف حماية أحد بل تستهدف تحقيق أوسع هيمنة ممكنة.

إن الحديث الاستعماري عما يُعرف بالاضطهاد والتمييز الديني ضد الاقباط في مصر، ما هو إلا محض ضلالة وتضليل يراد به صرف نضالات الشعب المصري عن مبتغاها في الحريات الديمقراطية الأوسع والأشمل، فالأمر كله ومفتاح حل أي أزمة يعيشها المصريون يكمن في إطلاق الحريات الديمقراطية وحق تشكيل الأحزاب والجمعيات وإشاعة الديمقراطية في كافة نواحي الحياة المختلفة في مصر، وبالتالي اعتماد الشفافية التي تمكن من استجلاء الحقيقة وقبول الآخر، فضلاً عن إعمال حق الاعتقاد الذي أطلقه الدستور المصري، وإتاحة الفرصة كاملة للتعبير والعمل العام السلمي، وتداول السلطة، مما يوطد التضامن والتلاحم بين المصريين جميعاً.

ولاشك أن الوعي الوطني لدى المصريين ولحمه بالوعي الديمقراطي وإعمال حق الاختلاف والاتفاق وقراءة واستجلاء تاريخهم الحقيقي، سيكون هو منطلقهم إلى مستقبل مزدهر، تعلو فيه رايات العدل والتقدم ويكون فيه الدين لله .... والوطن للجميع، عندها يسعى الجميع للخير والتقدم والازدهار.

**محمود ملاح**

---

### المراجع:

- (١) جريدة الدستور العدد ٨٠ بتاريخ ١٨/٦/١٩٩٧ ص ١٣. مقال بعنوان :  
مقال مجهول لطفه حسين : خطورة نص الإسلام دين الدولة، تقديم حسين  
أحمد أمين.
- (٢) نص المادة الثانية من الدستور المصري الصادر في عام ١٩٧١ (نص  
معدل بقرار جمهوري في أواخر السبعينيات).
- (٣) ميثاق العمل الوطني - مايو ١٩٦٢.





# الفصل الأول

تاريخ مصر القبطية.... لماذا الآن؟

مصر القبطية .... مرحلة طويلة من مراحل تاريخ مصر امتدت منذ بدايات النصف الثانى من القرن الأول الميلادى وحتى عام ٦٤١ ميلادية، أى زهاء ستة قرون من عمر مصر، خاضت خلالها نضالاً دموياً مخضباً بالدماء، زادت وذاد شعبها عن وجودها ووجوده، وثوابتها وثوابته وعن ثقافته وحضارته، واستطاع الشعب المصرى أن يحقق التواصل مع التراث القديم كله بقيمه ومثله العليا، وحفاظه فى نفس الوقت على التواصل مع من حوله ومع الإنسانية كلها.

مصر القبطية لم تكن فترة منقطعة فى تاريخ مصر، فلم تكن رومانية ولا بيزنطية، كانت كما هى دوماً مصر قلب المنطقة الممتدة حولها، دافقة بالدماء إلى العقل الذى أضاء طريق المستقبل، وكانت كما هى دوماً نوراً هادياً للإنسانية رغم الضعف والانحلال والأزمات الاجتماعية وسيطرة الغزاة.

مصر القبطية .. تاريخ طويل وجليل حاول الغزاة طمسه وإبعاده عن متناول عقل أبناء مصر، لئلا يروا فيه الحكمة والموعظة، ولئلا يعرفوا ثوابت مصر

الباقية عبر الزمان، وليقطعوا التواصل بين أبناء مصر وتاريخها، وتاريخهم كله مع أحداث تلك الفترة.

وبرغم أن الدولة المصرية الحديثة ومنذ عام ١٨٠٥ سعت لأن تتلاقى مع النهضة والتقدم، وقطعت أشواطاً واسعة في استعادة الوطنية المصرية، وما تتطلبها من حقوق المواطنة<sup>(١)</sup>، فإن إغفال هذه الفترة التاريخية الهامة والحيوية في تاريخ مصر، قد ساد حتى الآن، برغم ما تشكله هذه الفترة من ضرورة لفهم مصر وشخصيتها واستلهاً نضال شعبها.

وبرغم أن مصادر تاريخ هذه الفترة موجود، وبرغم أن هناك كتابات عنها، إلا أنها مازالت متفرقة وفي ثنايا الكتب التي تتناول التاريخ الكنسى المصرى، أو هى كتب معدودة، ولا تتجاوز فى عددها أصابع اليد الواحدة. ولعله من المثير للدهشة والاستياء.. أيضاً.. أن يظل تاريخ مصر مطموساً فى كتب التاريخ بما فيها الكتب التاريخية تحت عنوان مصر فى العصر الرومانى، بل وصل الأمر إلى تسمية هذه الفترة التاريخية باسم مصر الرومانية أو مصر البيزنطية وأكثر جرأة من ذلك ... مصر الهيلينية.

وبالطبع لا يجرى الحديث فى تلك الكتب إلا عن تاريخ الإدارة الرومانية الدخيلة على مصر وشعبها.



وحتى عندما نتحدث تلك الكتب عن أحوال المصريين في تلك الفترة فإنها سرعان ما تتحدث في عجلة وبأسلوب نمطي عن الأحداث الإدارية، دون التحليل والتفسير لأسباب الحدث وآثاره المترتبة عليه.

من ناحية أخرى فإن الكتب التي تتناول تاريخ تلك الفترة من خلال التاريخ الكنسي قاصرة من حيث منهجها ومن حيث طريقة عرضها عن أن تلبي احتياجات الفهم واحتياجات البحث العلمي في دراسة وتحليل هذه الفترة التاريخية.

ولعل الأمر يثير الدهشة والاستياء ويثير أيضاً التساؤل عن الغرض من بقاء الأمر على ما هو عليه دون أن تقترب منه الجامعات وأجهزة البحث العلمي، فلا زالت الكتب والدراسات الجامعية تشير إلى تاريخ مصر الهيلينية، والرومانية والبيزنطية وما زالت المعلومات الخام كما هي دون تحليل أو تفسير.

والحقيقة أن الذي يدفع المرء إلى الاستياء هنا (أن تاريخ مصر القبطية وكشف النقاب عنه ونشره وإشاعته وتدرسه في المدارس والجامعات، وطرحه للقراءة العامة أمر حيوى وضرورى ومطلب أصيل من متطلبات إدراك المواطنة المصرية، وإحياء الذاكرة الوطنية).

وإدراك المواطنة المصرية لا نعنى به التسجيل في سجلات الدولة ولكن ما نعنيه بالتحديد هو الانتماء وما يتطلبه من حقوق وواجبات، وأول هذه الحقوق هو حق معرفة سبب هذا الانتماء وكيف، وما هي

مكوناته. ولاشك أن تاريخ مصر القبطية يشكل مساحة واسعة في معرفة هذا الحق باعتباره يفسر بداية النقلة النوعية للمصريين من العصور القديمة إلى العصور الوسطى والحديثة، حيث شكلت تلك الفترة استمساك المصريين بثقافتهم وقوميتهم رغم محاولات المسح التي جرت على مستوى الدين واللغة والثقافة والتي باءت بالفشل وعندما نتحدث عن الانتماء وتأسيس حق المواطنة، يبدو أنه لا مفر من الإشارة إلى حالة الازدواجية الثقافية التي صاحبت المجتمع المصري منذ مطلع القرن التاسع عشر، وما زالت تؤثر فينا وفي أحوالنا الثقافية والاجتماعية حتى الآن، وفي اعتقادي أن حالة الازدواجية هذه وتأثيراتها السلبية لا ترجع فقط إلى ما يسمى بالصدمة الحضارية التي نتجت عن اتصالنا بالغرب بقدر ما هي ناتجة عن القطع والإخفاء اللذين تما لبعض مراحل التاريخ المصري القديم والوسيط على السواء وأجد أن أبرز ما أثرى هذا الانقطاع هو الاهدار -الذي تم وبشكل يكاد يكون متعمداً- لتاريخ مصر في العصر القبطي.

ونشر وإشهار تاريخ مصر القبطية يكاد أن يكون درعاً أساسياً لنا في مواجهة محاولات التفريق بين المصريين من قبل قوى الهيمنة العالمية والتي تسعى إلى تفتيت المجتمعات، وإشعال الصراعات العرقية والدينية، بل وحتى افتعالها بين بنى الإنسان في أماكن كثيرة من العالم.

ونفس الأهمية والضرورة تتجلى في تاريخ مصر القبطية كقوة لا سبيل إلى التغاضي عنها تضاف إلى قوة التنوير في مواجهة الخطاب

الظلامى المتصاعد والذى يعتمد فى نموه وتحققه على نفى الآخر وسلب الناس حقاً أساسياً من حقوقها ألا وهو حق المواطنة، وحق الانتماء وذلك بجعل الانتماء للدين هو الانتماء الوحيد الذى لا يقبل معه انتماء آخر سواء كان حق الاعتقاد أو الحرية أو حتى حق المواطنة.

وفيما يتعلق بالذاكرة الوطنية وبالتالى تنمية القدرة على إدراك الذات فإن تاريخ مصر القبطية يمثل ضرورة جوهرية لإحياء الذاكرة الوطنية... وقد يقول البعض : يكفى تدريس وإشاعة وإشهار تاريخ مصر الحديثة لإحياء الذاكرة الوطنية وإثارة الحماس وتنمية قيم الانتماء والوطنية لدى الشباب، لكننا لا نريد الحماسة فقط.. إننا نريد بناءً راسخاً للقيم الوطنية والديمقراطية ينطلق منه الشباب ويضيئ لهم أيضاً طريق المستقبل..

فتاريخ مصر القبطية كان فى محوره الحقيقى صراعاً بين الثقافة المصرية العريقة فى الدين والفن واللغة والعلوم وغيرها وحتى فى الغرض منها ووظائفها، وبين الثقافة الرومانية - التى تضم قسراً إلى الثقافة الهلينية - تلك الثقافة التى ميزتها الهيمنة والسيطرة والعبودية والتى يطلق عليها البعض ثقافة القوة الغاشمة.

لقد كان تاريخ مصر القبطية، ولا يزال فى الحقيقة صراعاً بين استقلال عقل وضمير ووجدان المصرى، وبين محاولات السيطرة عليه وسلبه القدرة على التطور والارتقاء بهذه الثقافة والتواصل معها، ومع مستجدات ما يجرى فى العالم آنذاك.

كان تاريخاً للمقاومة الباسلة لشعب كان همه العمل والبناء والزرع والحصد، فمضى في كفاحه مجرداً في أغلب أوقاته من السلاح كأنه كان مسلحاً دائماً بعقيدته التي اتفقت واتسقت مع ثقافته، فأبدع في نضاله، وقهر الطغاه، بل وحقق القطع بينه وبينهم وأنشأ مؤسسته القومية الحامية، فكانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها، وحنى خروج الرومان من مصر، دولة داخل الدولة ردت الحياة إلى ملامح شخصية مصر الحضارية..

وعلى ذلك فإن هذا التاريخ يشكل زاداً لا ينضب من الدروس التاريخية المستفادة في مواجهة المحتل والمهيمن، ومعيناً لا ينضب أيضاً من القيم والمثل والمبادئ الأخلاقية والكفاحية، ولا بعقل أن نمتلك كل هذا ولا نملكه لأبنائنا ومواطنينا. إن امتلاك هذا التاريخ واستيعابه يدفع حقيقة إلى التلاحم الوطني، والفعل الوطني أيضاً كما يدفع إلى الالتقاء الحميم بين أبناء الوطن الواحد وإدراك وتحديد وتوسيع العناصر المشتركة بينهم، ومن ثم إدراك ضرورة التضامن والتعاون، مع بقاء حق الاختلاف، وهو في ذلك كله يضاف على صفة المواطنة معانٍ راقية وجليلة.

ولا تخرج المطالبة بنشر وتعليم وتدریس وإشهار تاريخ مصر القبطية، عن النظرة التقدمية للعلوم الإنسانية والتي ترى في التاريخ علماً يعنى بدراسة حياة البشر في مجتمع ما من المجموعات الإنسانية،

---

تلك الدراسة التى لا تعنى فقط تسلسل وقائع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إنما تعنى بالإضافة إلى تسلسلها تحليلها وتفسيرها وتبين الآثار التى نتجت عنها والاسباب التى أدت إليها، ومدى علاقة القوى الاجتماعية وتناميها فى لحظة معينة، بإنتاج تلك الأسباب وكيفية تقبلها وإدارتها لهذه النتائج.

كذلك لا تبغى هذه الدراسة بأن يصطنع تاريخ للمصريين يمجّد أفعالهم، سواء كانوا فى حالة الضعف أو فى حالة القوة، فمما لاشك فيه أن هناك مسئولية للناس والشعوب عما يجرى لهم فى مسيرتهم التاريخية الطويلة، مسئولية ترجع إلى مدى امتلاكهم للوعى بما يجرى وما سيتربّ علىه، والاختبارات التى تجرى أمام المواقف المختلفة.

---

المراجع:

(١) طارق البشرى : المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية - الهيئة  
المصرية العامة للكتاب طبعة عام ١٩٨٠ - ص ٢٠-٣٣ .









## الفصل الثانى

التكوين الثقافى والروحى  
بين  
الطبيعة والدولة فى مصر

## مقدمة

من المسلم به أن مراحل التاريخ وحلقاته مترابطة كل منها تفضى إلى الأخرى، وتلك المسلمة تستند فى الحقيقة إلى قانون علمى هو «قانون التراكم» الذى يفسر لنا أسباب التحولات التى تطرأ على المادة، ومن ثم على الحياة الطبيعية والإنسانية كلها.

ومن خلال هذا الفهم، فإننا لا نستطيع أن نتناول تاريخ مصر فى العصر القبطى الممتد من منتصف القرن الأول الميلادى وحتى عام ٦٤١م، إلا فى ارتباطه بالأحداث والصيرورة التاريخية للمجتمع المصرى والدولة المصرية، شاملاً فى ذلك كلا من البنية الفوقية والتحتية لهذا المجتمع، أو بشكل أبسط التطور المادى والتجلى الثقافى لهذا التطور، باعتبار أن هذا التطور المادى لم يكن ليحدث لولا تفاعل الإنسان مع بيئته المادية، ذلك التفاعل نفسه الذى ينتج نوعاً من التكيف النسبى مع هذه البيئة ويؤدى إلى راحة نسبية وسعادة نسبية وقدرة أرقى يمتلكها الإنسان على تطويع تلك البيئة لصالحه.

هذا التكيف وتلك القدرة تعنى فى التحليل الأخير مجموعة العقائد والأفكار والقناعات وطريقة الحياة التى صاغها من خلال تفاعله هذا، مستخدماً إياها فى تنظيم مظاهر حياته المختلفة (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية) وهذه العقائد والأفكار والقناعات والتنظيمات التى يحدثها الإنسان، ما هى فى حقيقتها إلا ثقافته وثقافة مجتمعه.

وسأحاول خلال هذا الفصل استعراض التطور الطبيعى «البيئى والجغرافى» الذى حدث فى مصر خلال أقدم عصورها، مبيناً فى نفس الوقت كيف واجه المصرى القديم تلك التطورات وتعامل معها بعد حدوث التكيف الإيجابى منتزعا لنفسه إمكانيات السيطرة عليها وتوجيهها بقدر الامكانيات المتاحة (فهم / وعى / أدوات) لتحقيق مصالحه وسعادته، محققاً لوجوده على أولى درجات سلم الحضارة الإنسانية.. تلك الحضارة التى ارتقى درجاتها بسرعة هائلة، لتصبح إنجازاته المادية والثقافية مصدراً جوهرياً لارتقاء الشعوب الأخرى سلم الحضارة الإنسانية.

### الإنسان المصرى القديم والتطور الطبيعى

يقصد بالتطور الطبيعى تغيرات البيئة الجغرافية لمصر، تلك التغيرات التى حدثت فى العصور الجيولوجية والمناخية القديمة، خاصة فى المنطقة الواقعة بين خطى عرض ٢٥/٤٥ شمالاً والتى تشمل فيما

تشمل مصر، وكما يشير «برستد»<sup>(١)</sup> فقد كانت أولى مراحل هذه العصور الجيولوجية هو عصر تكوين الأنهار العظمى وأوديتها في هذه المنطقة، أما الثانية، فكانت مرحلة نضوب الماء، تلك المراحل التي امتدت ما بين مائة ألف عام قبل الميلاد وسنة ٦٠٠٠ ق.م والتي تعرف تاريخيا باسم العصر الحجري القديم، والتي جرى خلالها صراع قوى بين الإنسان والطبيعة، كانت الغلبة فيه لقوى الطبيعة، إلا أن الإنسان استطاع خلالها أن ينظم حياته وفقاً لظروف البيئة السائدة، فاحترف الصيد وجمع الثمار، وذلك في إطار جماعات بشرية متنقلة.

وفي مصر لم تختلف حياة الجماعات البشرية فيها عن مثيلاتها في المناطق المجاورة، ذلك أن الأمطار كانت تنزل بغزارة (العصر المطير) في كل المنطقة الواقعة في شمال أفريقيا، وغرب آسيا، وشكلت مجالاً فسيحاً يرتع فيه الصيادون، حيث كانت منطقة خصبة الجنب.

وبينما كان المصري القديم يعيش على تلك الهضاب ولم يبرحها بعد، فقد كان نهر النيل ينحدر مجراه ويصنع بفيضاناته المتكررة، طبقات جديدة خصبة لواديه تاركاً في الوقت نفسه المستنقعات والأحراش على جانبيه.

في منتصف العصر الحجري القديم بدأ انحسار المطر، وفي إثر ذلك حل الجفاف العظيم الذي حول شمال أفريقية وهضبته الخصبة إلى بدياء واسعة نسيمها الآن بالصحراء الكبرى.

غير أن تلك العوامل الجيولوجية والمناخية نفسها كانت تعد طوال هذا الوقت موطناً جديداً أكثر ملاءمة لإنسان هذه الفترة في الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا (مصر) حيث اكتمل مجرى نهر النيل نهائياً<sup>(٢)</sup>.

لقد طرد الجفاف الناس والحيوان من الهضبة إلى هذا الوادى الضيق ليبدأ حياة جديدة تتطلب أداءاً مختلفاً من حيث طبيعة العمل المقيم للحياة، ففي بداية العصر الحجري هداه سعيه إلى اكتشاف الزراعة، واستئناس الحيوان، لينتقل إلى درجة أعلى من تنظيم حياته من خلال الاستقرار الذى ساعدته عليه الطبيعة الجديدة، فأقام المسكن لتظهر التجمعات السكانية، ويعد اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان أقام الصوامع لتخزين الغلال، وتربية الماعز والاغنام والدواجن، وبدأت الحياة الإنسانية تأخذ بدرجة أعلى من التكيف ومحاولة الانسجام مع البيئة والطبيعة السائدة، فظهرت الأواني الفخار والصلال، واستخدم المنجل فى الحصاد كآلة جديدة توفر الوقت والجهد وعرف الغزل والنسيج من الكتان وصنعت الملابس من هذا المنتج الصناعى، وكما اهتم المصرى القديم بالتزيين فقد بدأ يعتنى بدفن موتاه، وكان هذا الاهتمام وهذا الاعتناء، يعنى دلالة واضحة على رقيه الروحى والثقافى.

فى إطار سعيه الدءوب، لم يكن الإنسان المصرى القديم يركن إلى ما حصل عليه، بل واصل ارتقاءه، فحين مكنه وعيه من اكتشاف

الزراعة انتقل سريعاً إلى إزالة الإحراش، وبدأ يحصل منها على أقصى ما يستطيع، فشق الترع وأقام الجسور لتنظيم الاستفادة من المياه، وربط مبكراً بين الظواهر الطبيعية حين اخترع التقويم وربط بينه وبين المواسم الزراعية ومواعيد الفيضان.

ولم يقتصر جهد الإنسان المصرى القديم على الزراعة وتنظيمها والحيوان واستئناسه وتربيته وإكثاره، فقد تعداهما إلى اكتشاف المعادن واستخدامها كأدوات مساعدة له فى تطوير حياته ومواجهته للطبيعة وتكيفه الفاعل معها<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان اختراع الكتابة يمثل نقطة تحول رئيسية فى تطور الجنس البشرى، فإن المصريين يحتلون مكان الصدارة فى إحداث هذه النقلة الكبرى، فبينما يرجع مختلف الباحثين ظهور الكتابة إلى منتصف وأواخر مراحل العصر الحجري، مستدلين على ذلك بالآثار التى تركها القدماء فى منطقة الشرق القديم كله وما بينه من صور وأشكال تدل على كل من المفاهيم المعنوية والأشياء المادية المحسوسة، فقد أرجع الباحثون المحدثون الفضل إلى المصريين القدماء لابتكارهم أول أبجدية فى العالم تكونت من أربع وعشرين علامة هيدروغليفية، ليبتر منها الفينيقيون أبجدية أكثر سلاسة تحتوى على اثنين وعشرين حرفاً ليطورها الاغريق والرومان بعد ذلك.

هكذا نرى أن «المصريين القدماء استطاعوا تكوين أقدم مجتمع إنسانى على وجه الأرض بعد أن استطاعوا أن يضمّنوا لأنفسهم غذاءً

ثابتاً باستئناس الموارد من نبات وحيوان، على أن نغلبهم على المعادن فيما بعد وتقدمهم في اختراع أقدم نظام كتابي فد جعل في أيديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة<sup>(٤)</sup>.

غير أن هناك عنصراً هاماً ورئيسياً كان وراء هذا التقدم وهذا البدء الحضارى الإنسانى، ألا وهو التجانس البشرى الذى ميز المجتمع المصرى منذ القدم وأضفى على الوادى سلاماً واستقراراً.

لم يكن هذا التجانس وليد وحدة جنسية (سلائية) للبشر الذين سكنوا مصر فى تلك الفترة إنما تولد تجانسهم عبر طريق العمل الشاق والمنتج والمفيد اجتماعياً وإنسانياً، فبينما قالت الطبيعة قولتها، كان للإنسان فعله والذى به انتصر حقاً، فأمام عنفوان النهر، تكاثف البشر، فلم يكن شق الترع وبناء الجسور إلا نتيجة مترتبة على العمل الجماعى المشترك لتحقيق أعلى استفادة ممكنة من النهر وغضباته المتكررة، نفس الأمر كان السمة الأساسية فى العمل الزراعى بعد ذلك.

لقد كانت الفترة الممتدة ما بين العصرين الحجريين القديم والحديث، وحتى بداية عصر الأسرات ملحمة رائعة، كان اننصار الإنسان المصرى القديم فيها جلياً وواضحاً.

ولاشك إن إنجازاته التى توجت باختراع الكتابة واستخدام المعادن، قد أنتجت بنية ثقافية وخلفية هائلة، وكانت هى العبة الأولى التى انطلقت منها تطورات الفكر الإنسانى كله، كما سنرى فيما بعد.

وبرغم أن صيرورة الأحداث فى تلك الفترة قد أفضت نهائياً عام



٣٢٠٠ ق.م إلى نشوء دولة مركزية قوية سمتها الرئيسية الهيمنة والاستبداد إلا أن ذلك كان ضرورياً ولازماً لاستمرار لحمة المجتمع وضمان تقدمه واستقراره كمجتمع نشأ في النهاية حول نهر وادي خصيب وحيد تمتد في شرقه وغربه وجنوبه صحراوات واسعة.

وعلى الجانب الآخر لهذا التطور الهائل والذي تمثل في وجود أول دولة مركزية، فإن التطور الخلقى والفكرى والدينى، والذي أثر تأثيراً قويا في سيرة الحضارة الإنسانية وثقافتها، قد أفضى إلى وجود تعددية واضحة في هذا الفكر وتلك الأخلاق وذلك الدين... تعددية تفضى من ناحيتها هي الأخرى إلى التماسك الاجتماعى وترسيخ القيم الإنسانية فى سعى البشر نحو العدالة والحق. وإن ذلك الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق كما نفهمها الآن، كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية، قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين، ذلك أنه وفقاً لهذا التطور الذى عرضناه من الناحية المادية، فقد أصبحت قوة الإنسان الظاهرة المنظمة، وقوة الوازع الخلقى الباطنة فيه تؤلفان قوتين مبكرتين فى تشكيل الديانة المصرية القديمة<sup>(٥)</sup>.

### الدين والدولة والمجتمع فى مصر القديمة

يجمع كافة الباحثين على عدم وجود حدود معلومة لبدائيات الديانة المصرية القديمة، وبالرغم من أن العصور التاريخية التى بدأت باختراع الكتابة قد أوضحت إلى حد ما أصول الديانة المصرية القديمة،

إلا أن بدايات تلك الديانة مازالت مهمة ومشوشة، وترجع أبقار السقاف<sup>(٦)</sup> تلك البدايات إلى مرحلة من مراحل التطور والارتقاء النى مربها الإنسان حين بدأ العقل الإنسانى يفعل فعله ويفسر ما حوله .

ويتجه أحمد صادق سعد<sup>(٧)</sup> إلى تحديد أكثر فيرجع بدايات الدين المصرى القديم إلى المعتقدات والتقاليد الطوطمية للقبائل والجماعات البشرية التى استقرت على ضفاف النيل . ويعنى ما مايقدم أن بدايات الدين المصرى القديم قد سبقت إلى زمن بعبد نشوء الدولة المصرية، سواء تلك التى لم يفدر لها الدوام والى قامت فى عام ٤٢٤٠ ق.م، أو تلك التى وحدث مصر نهائيا عام ٣٢٠٠ ق.م .

غير أن ظهور الدولة فى مصر قد أوضح لنا، وإلى حد بعيد، طببعة الديانة المصرية القديمة بمعتقداتها المتعددة، كذلك أوضح أبصاً إلى أى مدى كان هناك دين رسمى له نظامه اللاهوتى وكهنبه وينفى الإرباط بالدولة والحاكم، ودين شعبى آخر يعتنقه السواد الأعظم من الشعب .

ويؤكد أحمد صادق سعد<sup>(٨)</sup> هذا المفهوم حين يشير إلى طببعة النطور الاقتصادى والاجتماعى فى تلك الفترة الإنقاليه، ما بين القبائل والجماعات وتكون الدولة موضحاً أنه مع «الانقسام الطبفى اننقل الطوطم من بناء القرية إلى البناء الداخلى للمعبد، فأصبح إليها لا ينصل بعباده إلا عن طريق الملك .. «كاهنه» .... ومع توحيد الدولة أصبح إله الأسرة الحاكمة، أكبر الآلهة .. إلخ» .

وهكذا وكما فعلت البيئة المحيطة - وبطبيعة الجغرافية - فعلها القوى  
فى إنجاز الوحدة وإقامة الدولة، فقد كان للدين فعله القوى والمؤثر فى  
إتمام هذا الاندماج وترسيخه إلى حد بعيد.

غير أنه كان على الملك الموحد أن يؤكد فى كل لحظة كلياته جبروته  
وقدراته اللامحدودة، تلك القدرات وذلك الجبروت اللذان لم تظهر لنا  
منهما «لوحة نارمر» إلا جانباً واحداً فقط وهو استخدام العنف والقوة من  
أجل تحقيق الهدف.. لقد كانت هناك أفعال وجهود أخرى بذلها الموحد،  
تلك التى تبذرت فى إقامة أول نظام رى صناعى ينشئه البشر، ثم من  
خلاله ضمان وصول المياه إلى كافة البقاع المزروعة وبالتالى التخفيف  
إلى حد بعيد من المنازعات، كذلك السيطرة الواسعة والكاملة على كافة  
أنحاء الوادى والدلتا وتحقيق ما يمكن أن نسميه الآن «الوفرة».

وبمجملة هذه الاعمال قدم الملك كل المسوغات التى تبيح له أن  
يكون على علاقة قوية بالإله المعبود، فصار ابناً له ومبعوثاً ليحكم  
الأرض والبشر.

فى الوقت نفسه وكأثر مترتب على تلك الوحدة وبعد اعتلاء عرش  
البلاد ملك كلى الجبروت، فقد ارتفعت الآلهة إلى السماء نهائياً لتترسخ  
عقيدة عبادة الشمس وإلهها «رع»... عقيدة الطبقة الحاكمة وصفوة  
المجتمع الذين يملكون الجاه والسلطان، وصار الملك ابن الإله وصارت  
قراراته مطلقة صلاحية مطلقة القبول من الرعية.

على الجانب الآخر.. جانب جموع الناس والشعب، كانت هناك عقيدة أخرى صنعت إلهها من نفس نوعها.. إنسان... محب للخير ويسعى إليه دوماً، إلا إن إله الشر يغتاله، فتبعته المرأة.. الزوجة الوفية المخلصة... الأم الرءوم.. المناضلة لينصر له الابن ويستنهضه، ويجبر مجمع الآلهة على أن يردوا إليه عرشه الإنساني ولكن في مملكة الموتى، حاملاً راية العدل مقيماً للميزان «لتقسط ماعت بين الحميع وفعا لأعمالهم في الدنيا».

وهكذا سيبدى التكوين النفاقي المصرى القديم فى إحدى أهم مكوناته على الإطلاق - الديس - ذلك الدين الذى وصفه أدولف إرمان<sup>(٩)</sup> بأنه اتخذ طابعاً خاصاً، اتفق مع الحياة الهادئة والعمل المستمر الذى نحتمة البيئة التى يعيش فيها المصرى القديم.

فإذا كان العمل هو الذى أنتج مصر على ما هى عليه فى تلك الفترة فإن قيمته تتبدى هى الأخرى فى مجموعة هائله من الفهم والمبادئ الاخلاقية لدى الإنسان المصرى ألا وهى التسامح وقبول الآخر، ويؤكد ياروسلاف تشيرنى<sup>(١٠)</sup> هذه الفرضية، حين يذكر أن ديانه «رع» قد نجحت فى الوصول إلى ترصية مع ديانة «أوزوريس» التى انتشرت بشكل لا يقاوم.

غير أن نظرة أخرى للأمور لا ترى فى ذلك ترصيه بفدر ما ترى فيه إذعاناً للأمر الواقع والتسليم بحق الاعتقاد، وبأن الجميع إلى خلود

وبأن عدلا سينصب ميزانه لينصف الذين ظلموا في الحياة، وأن القائم على الميزان هو الإنسان الذى لاقى الظلم الكامل، وهو نفسه الإله الذى ارتبط بالأرض والنيل والنماء، ذلك أن المدارس الرئيسية الثلاث أو المؤسسات الدينية الثلاث فى مصر القديمة والمدعومة بالقوة السياسية للدولة (أون - منف - الأشمونين) قد رفعت ذلك المظلوم الأكبر إلى مصاف الآلهة وضمته إلى تاسوعها.

مضت الدولة المصرية فى عصر الأسرات بأسرتيها الأولى والثانية لتحقيق ازدهاراً حقيقياً فى الحياة المادية، وكرست فى الوقت نفسه السيادة لعبادة الإله حورس.. (الشمس المجنحة) بعد أن أدمجته مع إله الشمس (الجنوبى) «آتوم» «آتوم رع» وهو أمير يراه سيد القمنى<sup>(١١)</sup> ذا خلفية سياسية تمكن الحكم من خلاله من السيطرة على كل من الشمال والجنوب عن طريق استغلال العواطف الدينية .

#### الدولة القديمة يحكمها أبناء الإله:

فى عام ٢٨٧٠ ق.م يؤسس «زوسر» الأسرة الثالثة مفتتحاً عصرًا استمر زهاء خمسمائة عام وهو عصر الدولة القديمة التى شملت الأسرات من الثالثة إلى السادسة وقد كان عصرًا مزدهرًا ومتميزًا من حيث التقدم التقنى والحضارى بشكل عام، ففيه تبلورت الديانة المصرية القديمة أكثر فأكثر عبر الصراعات بين مدرسة (أون «عين شمس أو هليوبوليس») ومدرسة (منف) الدينيتين، كذلك شهد عصر

هذه الدولة صعوداً كبيراً لطبقة الكهنة، الذين لعبوا دوراً كبيراً في الصراع السياسى فى ذلك الوقت خاصة فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة<sup>(١٢)</sup>.

### الدولة الوسطى وعبادة أوزوريس:

إن ما سنخرج به من هذا الصراع من نتائج هو الانتشار الواسع لاعتناق عقيدة أوزوريس. لقد أفضى الظلم الاجتماعى الناتج بشكل أساسى من استحواد الملك والدولة وأيضاً الكهنة -باعبارهم مكونا رئيسيا من مؤسسات الدولة - على عائد عمل الشعب آنذاك؛ إلى تلك الثورة، كذلك فإن الانحياز الواضح والاعتناق الواسع لعقيدة أوزوريس لم يكن إلا رد فعل شعبى على المكون الدينى الرسمى الذى كرس للملك كل حقوق الدنيا وكل نعيم الحياة الآخرة بما فيها الخلود نفسه.

لم تؤد هذه الثورة الاجتماعية التى لم ينصر فيها الشعب إلا إلى عصر طويل من الاضمحلال استمر من نهايات الأسرة السادسة وحتى بدايات الأسرة الحادية عشر (من عام ٢٢٨٠-٢١٣٤ ق.م)، إلا أن نتائج هذه الثورة سوف تعكس من ناحية الحياة الدينية، تطوراً هائلاً تمثل فى أن الإله «رع» قد توارى إلى حد بعيد بعد أن ظهر الإله «مونتر» إله مدينة «أرمنت» التى قدم منها الحكام الجدد الذين كونوا الاسرة الحادية عشر، ثم سادت عبادة الإله «آمون» إله مدينة طيبة، والذى كان أحد أعضاء المجمع المقدس وفقاً لمدرسة الأشمونين، لينتزع

ملاحح الآلهة الرئيسية مثل «بتاح» و«رع» و«مين» والإله الأزلى «تاتنن»، غير أن عبادة تلك الآلهة ظلت قائمة ولم تسد عبادة آمون نهائياً إلا منذ عصر الأسرة الثامنة عشر بعد أن حققت انتصارها الوطنى على الهكسوس.

تأتى ثانى هذه النتائج متمثلة فى أن الملوك الجدد خاصة ملوك الأسرة الثانية عشر لم يكونوا من ذوى الدم الملكى القديم، وبالتالى لم يلقبوا بأبناء الآلهة وإن استخدموا الكهنة والنبوءات ذات الصبغة الدينية فى تثبيت ملكهم بإظهار أول ملوك هذه الأسرة «أمنمحات الأول» كمخلص ليحقق حلم الناس فى العدل.

أما النتيجة الثالثة وهى المرتبطة بالتزايد الواسع لأتباع العقيدة «الأوزيريه» فتتلخص فى أن هذا التزايد قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بكون «أوزوريس» لم يكن منافساً لأى إله محلى آخر، وهذا يعنى أنه لم تكن هناك أية عقبات حقيقية من تناقضات مع أى آلهة أو عقائد أخرى<sup>(١٣)</sup>.

كذلك نرى أيضاً من جانبنا أن مراوغة «رع» «لحورس» فى تمكينه من عرش أبيه (وهو ما أبرزته الأسطورة) كان يعنى بشكل أو بآخر ما رسخ فى ضمير معتنقى الأوزيريه من معانٍ حول ارتباط الملوك القدامى الذين قامت الثورة ضدهم، بالإله «رع»، وهو ما ساعد أيضاً على انتشار هذه العقيدة وتزايد أعداد معتنقيها.

وتأتى النتيجة الرابعة متمثلة فى إظهار الملوك لتقواهم وتمجيدهم لإله الشعب «أوزير»<sup>(١٤)</sup>.

على أية حال يأتي عصر الدولة الوسطى (٢١٣٤-١٧٧٨ ق.م) عصرًا فريداً في تاريخ مصر القديمة، حيث يطلق عليه علماء التاريخ عصر المجد والازدهار، وترجع هذه التسمية إلى استجابة الحكام الأوائل لهذا العصر لتحديات زمانهم، فبداية عهد تلك الدولة بدأ باستعادة وحدة البلاد، وتحديد سلطة حكام الأقاليم ثم الدفاع ضد الاخطار الخارجية .

وما لبث حكام الأسرة الثانية عشر فيها أن استكملوا جهود الدبمة الواسعة في مجال الزراعة واستصلاح الأراضي (إنشاء سد اللاهون وإقامة محافظة القبوم الحالية) أما في مجال النجارة فقد اهتمت الأسرة الثانية عشر بالتجارة الخارجية بشكل لم يحدث من قبل فقد أنشأت قناة «سنوسرت» لتصل ما بين النيل والبحر الأحمر، ولتدعم التجارة مع الشرق عموماً وجنوبه على وجه التحديد، ولعل تلك الأنشطة التجارية هي التي دفعت المصريين القدماء إلى إدراك ما يمكن أن يسميه الآن بـ «المجال الحيوى» وذلك حين تأسست الامبراطورية المصرية النى امتدت من شمال القرات وحتى الجندل الرابع جنوبى وادى النيل .

من الناحية الدينية لم يكن لهذه الدولة تأثيرات جوهرية بزيد على التأثيرات التى أحدثتها الثورة الاجتماعية السابق الحديث عنها .

ورغم انكسار الدولة الوسطى لنفس الاسباب التى سفلت على أثرها الدولة القديمة يضاف إليها تطلع العسكر إلى العرش والصراع بين حكام الأقاليم ثم دخول الهكسوس الغزاه فإن شيئاً من تراث تلك الدولة قد بقى لمن بعدهم - فإذا كان اعتلاء أحد قادة الجند لعرش البلاد، رغبة منه



واستجابة لمتطلبات درء الأخطار والنهوض بالبلاد، يمثل إلى حد ما مناورة من الطبقة الوسطى (إذا جاز القول) فإن تكوين الدولة الحديثة قد جاء عبر ما نسميه اليوم «حرب التحرير الشعبية» التي ابتدأها الأمير الشهيد «سقنن» ليخلفه ابنه «كامس» ويحقق الانتصار النهائي ولده الثاني أحمس ليسحق الهكسوس ويفتح عصر الامبراطورية المصرية ويؤسس دولة امتد عمرها بين عامي (١٥٧٠-١٠٨٥ ق.م) على مدى ٤٨٥ عاماً من عمر الزمان، شهد في مصر أعلى تطور لها في العصور القديمة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

خلال هذه الفترة حكمت أسرات ثلاث هي الأسرات ١٨، ١٩، ٢٠. وفقاً لتقسيم ما نيتون الكاهن / المؤرخ المصري القديم، وهي الفترة التي سماها المحدثون بعصر الدولة الحديثة.

### الدولة الحديثة بين الصعود والهبوط

كما أسلفنا فقد قامت هذه الدولة عبر نضال دؤوب خاضه الشعب المصري بقيادة أمراء لا يمتنون بصلة إلى نهج الملوك الأقدمين في عصرى الدولة الوسطى والقديمة. لقد تبوأ حكام ذلك العصر، خاصة الملوك الأول للأسرة الثامنة عشر عرش البلاد باعتبارهم المستردين لحرية وطنهم بطردهم للهكسوس، فكانت شرعيتهم سابقة على اعتلائهم عرش البلاد.

كذلك كانت الأصول الغالبة على حكام مجمل تلك الفترة هي الأصول الشعبية، كقيادات للكفاح الوطنى ضد الهكسوس، أو قادة

عسكريين استوعبوا متطلبات دولتهم واستقرارها فامتطوا الحكم لتحفيز ما استوعبوه (تحتس الثالث، حورس) وإذا كانت تلك السمة قد شكلت ملمحاً أساسياً لهذه الدولة في بدايتها فإن هذه السمة لم تستمر طويلاً أمام متطلبات الحكم المركزي، وأمام تدعيم سلطة الحكم بالدين وأمام عرف الوراثة الملكية، والذي ما كان له إلا أن يتسلح بالقداسة في مواجهة معارضيه، وهو أمر سنرجع إليه تفصيلاً عند الحديث عن الحالة الدينية وتطورها خلال عهد هذه الدولة.

تأتى سمة هامة أخرى من سمات الدولة الحديثة في مصر القديمة، ألا وهي الإدراك الواعي الذي تكون عبر التاريخ كله لأهمية شرق مصر وشمالها الشرقي بالنسبة لاستقرارها. ولم يكن لهذا الإدراك أن يتحقق إلا بقمته التراكمية حين غزا الهكسوس مصر، واندلع النضال ضده إلى أن تحقق التحرير وتمت السيطرة النسبية على شمال شرق مصر.

في عهد تحتس الثالث تم اكتمال هذا الإدراك وتمت السيطرة الكاملة على المجال الحيوي لمصر وقامت امبراطورية امتدت من شمال نهر الفرات شمالاً حتى الجندل الرابع جنوباً. لقد أدرك رجال هذه الدولة، أنه لا أمان لمصر ولا لتجارها إلا بالسيطرة على معابر الهجرات في شمال سوريا وأطراف العراق، وضبط المتغيرات التي تجرى في هذه المنطقة.

كان الانطلاق إلى آسيا يحمل إلى جانب القوة والهيمنة زادا حضاريا جديدا، وهو ما سنراه واضحا في بعض الأثریات الموجودة في سوريا (الآن) مثل توابیت الموتى، وبعض المعابد التي أسسها المصريون كجنود أو موظفين .

وبالنسبة للتأثيرات التي أتت من تلك المناطق فإن ظاهرة التسامح الدينى التي ميزت العقائد الدينية في تلك الفترة قد دفعت المصريين إلى النظر للآلهة «الاجنبية» القادمة من غرب آسيا بعين الرعاية وروح الضيافة لدرجة أن أصبحت منف مركزاً للعبادات الآسيوية جنباً إلى جنب مع العبادات المصرية . غير أن وجود هذه الآلهة الآسيوية أو حتى القادمة من النوبة وليبيا لم تكن ذات أثر في العقيدة الدينية للمصريين آنذاك، فمن ناحية لم تكن تلك المعبودات بقادرة على أن تكون مؤثرة أو قوية بما فيه الكفاية لكي تقف جنباً إلى جنب مع آلهة المصريين أو كمنظائر لها، أو حتى مؤثرة بشكل أو بآخر على المشاعر الدينية للمصريين ومن ناحية أخرى فإن انتشار شعبية الآلهة السامية واحتضان الملوك المصريين لها (رمسيس الثانى) ، لم يؤد على الإطلاق إلى نجاحها في التأثير على التطور الفكرى الدينى في مصر، فبمجرد أن ففدت مصر امبراطوريته في آسيا فإن شعبية هذه الآلهة هوت سريعا<sup>(١٥)</sup> .

وهناك أمر ينبغى الالتفات إليه في أحداث تلك الفترة (عصر الدولة الحديثة) وما أعقبها من ظهور ديانات آسيوية جديدة، وهو ما أشار إليه

تشيرني<sup>(١٦)</sup> من أن المصريين عندما أخضعوا مناطق غرب آسيا، جلبوا معهم العديد من الأسرى الذين اسخدموا كرقيق وعملوا في المعابد.

ولعل الإطالة في موضوع التأثير الحضارى سوف تفيدنا في التعرف على الاسباب التى أدت إلى قيام الدعوة الدينية التى أطلقها إخناتون بديانته التوحيدية، والتى وصفها البعض بأنها كانت ثورة على كهنة آمون ومحاولاتهم للسيطرة على الحكم، ووصفها البعض الآخر بأنها الدعوة التى نفت التعددية والتسامح الدبنى ووضعت أولى لبنات فكرة التكفير<sup>(١٧)</sup> لقد تعرضت الامبراطورية المصرية القديمة لخطر الانحلال والتفكك نتيجة للأوضاع الداخلية التى سادت أخريات عهد الاسرة الثامنة عشر<sup>(١٨)</sup> كان من أبرزها تعاظم نفوذ الكهنة ومروسيهم من كبار الموظفين، وما ترتب على ذلك من فساد، إضافة إلى عودة الملوك إلى استخدام الدين فى تأكيد سلطتهم ونوريت العرش.

فى الوقت نفسه كانت المناطق التى تتاخم حدود الامبراطورية المصرية فى غرب آسيا تموج بحركة الدول والحضارات الناشئة فى كل من العراق وفارس، واستتبع ذلك أيضاً تملل من السيطرة المصرية من قبل الشعوب القاطنة فى شمال شرق مصر، ولم يكن أمام أمنحنب الرابع (إخناتون) إلا أن يعلن ديناً جديداً، كان الأول من نوعه فى التاريخ المصرى القديم (رغم أن المصريين قد صاغوا إلههم وحيداً ثم أضافوا له معاونين) .. كان محور هذا الدين هو الوحدانية فى مواجهه التعددية الفائمة سواء فى داخل مصر أو فى امبراطوريتها الواسعة.

ويبدو أنه قد ضرب عصفورين بحجر واحد، فمن ناحية بدأ مع إعلان هذا الدين الجديد حملة واسعة ضد التعددية والديانة القائمة في مصر آنذاك، وعلى الأخص منها ديانة «آمون» وكهنتها الذين دانت لهم الأمور، وسيطروا على أمور الحكم من خلال رئاستهم الدينية للدين الرسمي الذي اعتمده حكم الدولة الحديثة كله، وأحكموا سيطرتهم على موظفي الدولة وكبرائها بحكم موقعهم هذا واحتكارهم للعلم والتعليم والمعرفة.

من ناحية أخرى، فقد استن سنة أسلافه حين استخدم دينه الجديد ليتمكن من سيطرة أوسع (السيطرة الروحية) على شعوب ممتلكات الامبراطورية المصرية في غرب آسيا، وهو ما يظهر واضحاً في أناشيده لإلهه الجديد حين أشار إلى أن كلياته جبروته وخيره ونعمائه تمتد لتشمل كافة، ذاكراً أسماء بلدان رئيسية خاضعة لامبراطوريته هي الشام وفلسطين والنوبة<sup>(١٩)</sup>.

لقد شكل هذا الحدث الديني محوراً أساسياً في مجريات الحياة الدينية، ليس في مصر وحدها، بل في كل النطاق الجغرافي الذي سعت الدولة الحديثة إلى تأمينه لكي يأمن تطور مصر في الداخل.

غير أننا يجب أن نشير إلى الطبيعة المميزة للمصريين في معتقداتهم الدينية، فقد اعتقد أن الآلهة قد حمته دون المخلوقات، بل إن الآلهة هي التي حمته منذ بداية الخلق<sup>(٢٠)</sup>، ويضاف إلى هذا أن الطبيعة الجغرافية

بصحراويتها قد منعته أو حرمته أو حمته من الإتصال أو تلقى تأثيرات الخارج المحيط به، كل تلك العوامل كفت عن الفعل حين صدم بدرجة أو بأخرى بما رآه يجرى فى مجاله الحيوى، أى البلاد والمجتمعات المحيطة به. لقد هزت الصدمة كثيراً من الأشياء والأفكار التى كانت تعتبر ثوابت بالنسبة له، ساعد على فعل هذه الهزة، ما كان يجرى، وما جرى بعد ذلك من الانفصال الحاد بين الفكر الدينى للطبقات الحاكمة، وبين المعتقدات الإنسانية التى كان بعنفها بصدق عامة المصريين، وأبرزها على الإطلاق العبادة الأوريرية، تلك التى لم بهنز عندهم أبداً.

تأتى كذلك سمة أخرى بخص الحكم والدين معافى تلك المرحلة المتطورة من تاريخ مصر القديمة ألا وهى عوده مبدأ التثليث فى الدين جليا وواضحاً، ولكن فى خدمة الحاكم تحديداً. ويفسر لنا ياروسلاف تشيرنى<sup>(٣١)</sup> ظاهرة الثالوث الإلهى فى الديانة الفرعونية مشيراً إلى أن الأحداث السياسية التى مرت بمصر وانتهت بوحدها السياسية نهائياً عام ٣٢٠٠ ق.م قد أفضت إلى سيادة معبود رئيسى، هو معبود الإقليم المنتصر، غير أن الكهنة أتباع الآلهة المحلية المهددة بالانزواء والاختفاء ما لبثوا أن أعلنوا أن معبوداتهم ما هى إلا مجرد أقانيم للإله الرئيسى لا تختلف معه فى جوهر صفاته الخاصة إلى أن وصل الأمر لأسلوب لجأ إليه كهنة الآلهة القديمة للحفاظ على كيانها، وذلك بإدخالها عضواً فى ثالوث إلهى مقدس مع آله رئيسية يجعل بينهم دور الزوج أو الزوجة أو الابن، فقد كان مبدأ التثليث قديماً، أخرجه مدرسة

(أون) تحديداً ثم تبعته مدرسة (منف)<sup>(٢٣)</sup> وظهر واضحاً وجلياً في العقيدة الأوزيرية، غير أن عقيدة أوزير جاء التثليث فيها متسقاً مع الطبيعة الإنسانية، وفي إطار الصراع بين الخير والشر، ترسخ العدل بين الجميع من منطلق أن الأعمال الدنيوية هي التي تجيز الدخول إلى النعيم الأبدى أو تدفع بفاعلها إلى الجحيم.

الجديد في مبدأ التثليث في عصر الدولة الحديثة وبدءاً من الأسرة الثامنة عشرة، أن الإله يتجسد في جسد الملك الأب، أو أن الإله بذاته يضاجع أم الملك لإنجاب الذات الملكية المقدسة وقد ابتدأت هذه الفكرة في عصر حتشبسوت، حيث روج رجال الدين (الكهنة) لهذه الفكرة مدعين أنها «وحيا»، ويشير د. عبد العزيز صالح<sup>(٢٣)</sup> ود. سيد القملى<sup>(٢٤)</sup> إلى أن أشهر ثمرات هذه المضاجعة الإلهية هم حتشبسوت وتحتمس الثالث والرابع وأمنحوتب الثالث.

ومن الواضح أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة ذوى الأصول الشعبية كانوا يهدفون من ذلك إلى تدعيم سلطانهم بالقداسة الإلهية. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنهم كانوا يقتدون في ذلك بالمعتقد الأوزيري الشعبي واسع الانتشار من حيث فكرته الرئيسية فيبدون للشعب وكأنهم «مخلصون».

وكما افتتحت الأسرة الثامنة عشر حكمها بالانتصار على الهكسوس وتحرير الوطن فقد اعتلى في أواخرها عرش البلاد أحد العسكريين

الوطنيين وهو «حورمحب» الذى حاول تخليص البلاد من الأتار  
المقتربة على دعوة إختانون والنورة ضده .

لقد كانت أبرز أعماله فى المجال التشريعى والادارى، ناك  
التشريعات والتنظيمات الادارية التى حسرت إلى حد بعيد نفوذ الكهنة،  
كذلك كان إصراره واضحاً على رفض فكرة التوريث الملكى، تلك  
الفكرة التى استخدمت وفقاً لمنطور دبنى .

وخلال عهدى الأسرتين التاسعة عشر والعشرين، لم يحدث فى  
مصر أى تطورات دينية جديدة سوى أن ملوك هانبن الأسريين قد  
أضافوا إلى أسمائهم لقب «محبوب آمون» .

شهدت أواخر عهد الاسرة العشرين بعظم سلطة كهنة آمون فى  
الوقت الذى تدهورت فيه الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،  
فقد فقدت مصر تقريباً كل أملاكها الامبراطورية ماعدا النوبة وشمال  
السودان، ودارت المؤامرات فى العصر الملكى من أجل توريث العرش .  
على الجانب الآخر من هذا كله، كان انتشار حوادث سرقة القبور واسعاً  
وتدهورت فى الوقت نفسه مكانة آمون الدينية لدى المصريين .

ببداية الاسرة الحادية والعشرين تدخل مصر القديمة وديانتها عصر  
الاضمحلال الاخير فقد «اعلى عرش مصر ولأول مرة فى تاريخها  
كله «كاهن آمونى» هو «حريحور»، ومن ثم أصبحت طيبة «المقدسة»  
على يديه وأيدى كهنته أولى الدهاء، مجرد مصدر للوحى لأجل



القرارات السياسية والإدارية، وحتى الأحكام القانونية.. لقد تدهورت طيبة إلى إبالة كهنية بعد عام ١٠٠٠ ق.م وبدأ آمون يفقد تفوقه في ببطء... من الوجهة الأخرى يتضح أن أوزوريس الذى كان أكثر استقلالاً عن رعاية الدولة وتعظيمها قد كسب أكثر مما خسر في مكانته الشعبية<sup>(٧٥)</sup>.

ويشير إرمان<sup>(٧٦)</sup> وبالحاح إلى فارق هام فى أداء حريحور عن سبقة من الملوك «غير الكهان»!! وهو أنه اعتمد فى بنائه لمعبد «خنسو» إلهة القمر وثالث آلهة طيبة على الأحجار التى جلبها من المعابد التى هدمها بدلاً من أن يفتح محجراً جديداً، وهو ما يعنى طمس نقوش تلك المعابد التى تم هدمها، ويعرض كذلك لوثائق تدل دلالة واضحة على أنه فى عصر ذلك الكاهن لم يعد لقوة مصر وسمعتها وجود وأن ثروة أون لم يعد لها وجود كذلك!!.

ولم يكن باستطاعة «حريحور» هذا أن يحكم مصر كلها منفرداً حيث برز له فى الشمال «سمنديس» متربعا على عرش البلاد فى مدينة «تانيس» بشرق الدلتا، ثم ما لبث أن أدى هذا الانقسام إلى فقدان مصر لممتلكاتها فى غرب آسيا. وبعد أن مات «حريحور» بسط سمنديس نفوذه على الصعيد، ثم ما لبث أن تصاهر البيتان الحاكمان وحكما مصر لمدة تقرب من قرن ونصف لم يكن لهما مآثرة فى تلك الفترة غير محافظتهم على جثث (مومياوات) الملوك السابقين وأعضاء الطبقات

الحاكمة فى مخابئ سرية إلى أن نقلها آخر ملوكهم إلى المعابر الغربية من الدير البحرى<sup>(٢٧)</sup>.

لقد ضربت كل من الدولة المصرية وثقافة المصريين عموماً، سواء ثقافة الطبقات الشعبية، أم ثقافة الحكام ضربة قوية ومؤثرة إلى حد الإطاحة بالثوابت الباقية منذ زمن طويل.. لقد بطورت المنطقه المحيطة بمصر كلها من الشرق والغرب والجنوب، بل وحتى الشمال ممثلاً فى شعوب البحر المتوسط بالإضافة إلى والنوبيين والليبيين والأشوريين ثم الفرس، وبعيداً عنها أتى من هناك الاغريق والرومان، ورغم أن كلا من الليبيين والنوبيين، قد أسوا إلى مصر وحكموها، فقد تمصر الليبيون ودانوا بديانة المصريين، أما النوبيون فقد حكموا تحت تأثير كهنة آمون أنفسهم الذين غادروا مصر كلها برفعاً عن الحصوص لهؤلاء الأعراب الليبيين!!.

أما الاشوريون فلم يستولوا على مصر إلا طمعاً فى منفذ لهم على البحر المتوسط ( مركز العالم القديم )، وتأميناً لهذا المنفذ الذى حاولوا إقامته فى شرق المتوسط وحين حاولوا إدارة البلاد لم يجدوا إلا أمراء الأقاليم المتنازعين فأبقوهم على أقاليمهم ضماناً للسطرته على البلاد.

لم تعد مصر رغم كل ذلك رجلاً من رجالها اسنرد لها حربيها وطرد الاشوريين بالمرتزقة الاغريق وتولى الحكم فى عام ٦٤٥ ق.م تقريباً ألا وهو أبسماتيك الأول.

لقد أحيا هذا التحرر الجديد الروح المصرية وثقافتها وديانتهـا، ويصف إرمان<sup>(٢٨)</sup> تلك الحالة الدينية والثقافية التي أنبعثت في مصر في ذلك الوقت بأنها «بعث لكل القديم، وأصبح المثل الأعلى للناس في مصر هو الدولة القديمة، وأن الديانة نفسها قد استعادت قوة جديدة من هذه العودة إلى الحضارة المصرية القديمة، كما إنها تخلخت في حياة الشعب بما لا مثيل له من قبل». وتدل كتابات العديد من علماء المصريات على أن ما جرى خلال عهد تلك الأسرة (السادسة والعشرين) وكأنه بمثابة صحوة جديدة قومية<sup>(٢٩)</sup> ودينية في آن واحد.

غير أن بريستد Breasted يرى أنه خلال عملية المحافظة على القديم وبعثه، كان دين مصر يهوى إلى أعماق التدهور مشيراً إلى أن الكثير من التعاليم بقيت كمخلفات أدبية خالصة، وزحفت إليها تعاليم جديدة نتيجة للنفوذ الاجنبي.

على جانب آخر كانت تلك النهضة قاصرة في المجال العسكري، حيث اعتمدت تلك الأسرة على المرتزقة الاغريق في الدفاع عن البلاد، دون اعتمادها على أبناء البلاد المصريين كما فعل رواد الأسرة الثامنة عشر، لذلك سرعان ما تهاوى حكم تلك الأسرة تحت ضربات الفرس.

يصف إرمان<sup>(٣٠)</sup> أحوال مصر حين جاء الفرس بقائدهم قمبيز واستولوا عليها فيقول: إن ما نكب حقاً، كانت الديانة المصرية، فقد كان

هذا «الفارسي» يقف من مصر وآلهتها موقف «الساخر المحتقر»، وأساء  
إساءة بالغة إلى المصريين ومعتقداتهم ووصل به الأمر إلى حد تدمير  
المعابد والمعابدات، إلا أنه عدل عن تلك السياسة فيما بعد.  
ويرجع إرمان<sup>(٣١)</sup> أسباب التحول في سياسة قمبيز إلى أحد الأطباء/  
الكهنة المصريين، والذي عمل كطبيب خاص له «أوزار - حر -  
رسنت».

أما في عهد داريوس ورغم أنه سعى إلى إصلاح ما ارتكبه سلفه إلا  
أن المصريين لم يغفروا للفرس ما أقدر فوه، وظلت ثوراتهم لا تنقطع  
ومقاومتهم باقية إلى أن قادهم «آسون حر» لطرد الفرس وليعتلى عرش  
البلاد مؤسساً للأسرة النامنة والعشرين والتي تلتها الاسرنان التاسعة  
والعشرون والثلاثون لتستمر مصر في استقلالها إلى أن يأتي الفرس مرة  
أخرى عام ٣٤٢ ق.م وظلوا بها إلى أن جاء الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢  
ق.م ليطرد الفرس مرة أخرى ويبقى ليبعد الاستقلال عن مصر وحتى  
العصر الحديث (منتصف القرن العشرين).

ورغم أن الكثير من المؤرخين يصفون دخول الإسكندر مصر بأنه  
كان بمثابة دق المسمار الأخير في نعش الديانة المصرية القديمة، إلا أن  
الأمر من وجهة نظر أخرى لا يبدو كذلك بالضبط، حتى بالرغم من  
الادعاءات التي أطلقها الإسكندر وزعم فيها أنه أتى إلى مصر والشرق  
ليمزج بين الحضارة الهيلينية والحضارات الشرقية ومنها أو في القلب

منها الحضارة المصرية القديمة، فالحقيقة التاريخية تقول بأن ما حدث لم يكن دمجاً للحضارتين وإنما كان ترسيخاً للحكم الإغريقي على الأقل فيما يتعلق بمصر أثناء الاحتلال البطلمي وهو ما سنناقشه تفصيلاً فيما بعد.

أما الديانة المصرية القديمة فأمر تدهورها لا يمكن رصده أو تفسيره إلا من داخل الظاهرة نفسها أى من أوضاع الديانة المصرية وما جرى لها.

انزواء الديانة المصرية يرجع إلى كونها انقسمت إلى ديانتين.. ديانة للحكام علت إلى السماء، وديانة للشعب أو المحكومين ارتبطت بالأرض والإنسان، ديانة الحكام لم تكن فى أصلها ديانة السكان الأصليين كما يشير والاس بدج<sup>(٣٢)</sup> إنما ارتكزت فى الأساس إلى ديانة «عبدة حورس» أو «الحدادون» الذين غزوا البلاد وهزموا سكانها الأصليين واستقروا هناك وبنوا حضارة عصر الأسرات التى مهدت الطريق لقيام الدولة الموحدة فى مصر.

وقبيل قيام الدولة كانت آلهة المصريين «الحكام» قد ارتفعت إلى السماء ليعلو حورس المجنح رأس «رع» إله الشمس وعندما جاءت الدولة بملكها سرعان ما تكون الثالوث المقدس «حابى» إله النيل و«رع» إله الشمس، والفرعون «الملك الإله» وهكذا تكونت الديانات الرسمية رع - آمون لتكرس دائماً السلطة المطلقة وتربى المجتمع على النظر إلى هذه السلطة كمسلمة غير قابلة للجدل<sup>(٣٣)</sup>.

الديانة الأخرى التى سادت شعبيا فى مصر القديمة كانت ديانة «أوزوريس» تلك الديانة التى عبد إليها فى مصر قبل الأسرات وحتى جاءت المسيحية إلى مصر فى أوائل القرن الأول الميلادى وكما يؤكد (بـدج Budge) <sup>(٢٤)</sup> فإن تلك الديانة كانت أقدم ديانات المصريين، وعناصرها تمثل أقدم عناصر الديانات فى عصر الأسرات وأكثرها استمرارا ، حتى أن «عبدة حورس» الذين جاءوا بالديانة الشمسية معهم إلى مصر من الشرق، لم ينجحوا أبداً فى زحزحة أوزوريس عن مكانته المرموقة .... وصمدت ديانة أوزوريس بدون حدود برغم عدم تناسب القوى، لنفوذ كهنة رع وعبدة آمون والمتعلقين بآتون... ويرجع بدج سبب ذلك الصمود إلى أن جنة أوزوريس الموعودة كانت نموذجاً لوطن مصر الاصلى المريح الذى عاش فيه حياته الأولى، والذى كان يأمل أن يمضى فيه حياته الثانية... إلخ.

ووفقاً لهذه الاسطورة فإن العيش والحياة فى هذه الجنة كانا مرهونين بما يقدمه الإنسان من خير، وهكذا سارت الديانتان تقود الأولى الحكم كله بالقهر والاستبداد «العادل» إذا جاز القول وتسكن الثانية فى قلوب البشر البسطاء أملاً فى يوم العدل الحقيقى والمنشود.

إن الذى انزوى حقاً هو الديانة الرسمية المصرية القديمة بغض النظر عما فعله الإسكندر فى واحة سيوه .

ويرغم كل شئ امتدت الديانة الشعبية المصرية لتنتشر انتشاراً واسعاً فى كل البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط فى ذلك الوقت وحتى

---

داخل أوروبا البعيدة أيضاً، ورغم المسخ الذي صنعه والذي تمثل في «سبرابيس» إلا أن ايزيس قد بقيت، وظل الإنسان «أوزوريس» منتصباً حتى عندما اختفت في النهاية ديانتته أمام ديانة المسيح الإنسان، لينقل المصريون وفاءهم من أوزوريس إلى مسيح الناصرة<sup>(٣٥)</sup>.

## المراجع:

- (١) جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير - سلسلة الألف كتاب (١٠٨) مكتبة مصر ب - ت ص ٢٢-٣٥.
- (٢) برستد - نفس المرجع.
- (٣) أحمد صادق سعد - تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى - دار بن خلدون - الطبعة الأولى ١٩٧٦ - ص ٤٧-٤٨.
- (٤) برستد - نفس المرجع.
- (٥) برستد - مرجع سابق - ص ٣٦-٣٧.
- (٦) أبكار السقاف - نحو آفاق أوسع - العقل الإنسانى فى مرحلة التطورية - مكتبة الأنجلو المصرية طبعة عام ١٩٦٢ ص ١٣-٢٤.
- (٧) أحمد صادق سعد - مرجع سبق ذكره ص ٦٣-٦٤.
- (٨) أحمد صادق سعد - نفس المرجع.
- (٩) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة - نشأتها وتطورها فى أربعة آلاف عام - ترجمة ومراجعة د. عبد المعيم أنوبكر - د. محمد أنور شكرى - مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي ص ٥-٢٨.
- (١٠) ياروسلاف تشيرنى - الديانة المصرية القديمة - مشروع المائة كتاب (الكتاب ترجمة د. أحمد قدرى - مراجعة د. محمود ماهر طه - سلسلة الثقافة الأدبية التاريخية ص ٣٩).
- (١١) د. سيد محمود القملى : «أوزوريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة» (كتاب فكر رقم ١٢) - دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر ص ١٣.



- (١٢) د. سيد محمود الفمنى - مرجع سبق ذكره ص ٢٤-٣٠.
- (١٣) ياروسلاف تشيرنى - مرجع سابق ص ٤٠-٤٤.
- (١٤) د. سيد القمنى - مرجع سابق ص ٣٥ نقلا عن د. عبد العزيز صالح - تاريخ الشرق الأدنى القديم - الهيئة العامة للمطابع الأميرية - ج ١ ص ١٩٦٧ القاهرة ص ٥٨، ٥٩.
- (١٥) ياروسلاف تشيرنى - مرجع سابق ص ١٨١-١٨٩.
- (١٦) نفس المرجع ص ١٨٤.
- (١٧) بيومى قنديل:- المصريون المعاصرون بين الشوفينية والدوفية - بحث غير منشور قدم إلى احتفالية جيل السبعينيات (٢٣، ٢٥ يوليو ١٩٩٧) - القاهرة.
- (١٨) د. سيد القمنى - مرجع سابق ص ٣٩.
- (١٩) د. أحمد بدوى - فى موكب الشمس ج ٢ - القاهرة طبعة ١٩٥٠.
- (٢٠) أ- برستد - مرجع سابق ص ٣٢-٣٥.
- ب - كريستيان زيفى - الآلهة والناس فى مصر ج ١ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع طبعة ١٩٩٧.
- ج- والاس بدج - آلهة المصريين ص ٢٣-٦٨ - القاهرة مكتبة مذبولى ترجمة محمد حسين يونس.
- (٢١) ياروسلاف تشيرنى - مرجع سابق ص ٣٣-٣٤.
- (٢٢) بريستيد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة - ترجمة زكى سوس - دار الكرنك ص ٢٩-٨٥.
- (٢٣) د. عبد العزيز صالح - مرجع سابق ص ١٩٩.

- 
- (٢٤) د. سيد القمنى - مرجع سابق ص ٣٩.
- (٢٥) برستيد - تطور الفكر والدين ص ٤٨٨.
- (٢٦) أدولف إرمان - مرجع سابق ص ٣٥١-٣٦٥.
- (٢٧) نفس المرجع ص ٣٥٨-٣٦٨.
- (٢٨) أ - برستيد تطور الفكر ص ٤٨٨-٤٩١.
- ب - إرمان مرجع سابق ص ٣٥٨-٣٦٨.
- ح - تشيرنى مرجع سابق ص ١٩٥.
- (٢٩) إرمان - مرجع سابق ص ٣٦٩.
- (٣٠) نفس المرجع ص ٣٦٩.
- (٣١) دالاس بدج - مرجع سابق ص ١٥-١٨.
- (٣٢) د. طاهر عبد الحكيم - الشخصية الوطنية المصرية - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٦ ص ٥٥.
- (٣٣) دالاس بدج - مرجع سابق ص ١٧.
- (٣٤) تطور الفكر والدين ص ٤٩١-٤٩٣.
- (٣٥) دالاس بدج مرجع سابق ص ١٨.





## الفصل الثالث

الاحتلال الاغريقى الرومانى  
وأثره فى  
الثقافة والدين فى مصر القديمة



كما رأينا في الفصل السابق فقد كان السبق الحضارى المصرى إلى السواحل الشمالية للمتوسط وأوربا متحققا بالرغم من السيطرة البطلمية .  
غير أن إرمان<sup>(١)</sup> يرجح وصول ذلك السبق فى تأثيراته الأولى إلى زمن أبعد من ذلك بكثير، فيشير إلى الاحتياجات التى تطلبتها عملية التطور الحضارى فى مصر والتى كان لابد من استيرادها من الخارج مؤكداً فى الوقت نفسه أن اتصالات قوية كانت جارية مع «كريت» ضمن مناطق أخرى .

وعبر هذه الاتصالات تكونت فكرة ما عن ديانة المصريين يستدل عليها من الآثار التى وجدت فى هذه الجزيرة والتى توضح فى إحداها أن عنصراً دينياً مصرياً كان داخلاً فى طقوس العبادة هناك .

من ناحية أخرى وكنتيجة مترتبة على التحولات الهائلة التى اتصفت بالتدهور، والتى واكبت الدولة المصرية القديمة عصرها المتأخر (الأسرات ٢١-٣٠) كما أوضحنا من قبل، فقد قدم هؤلاء

الاغريق ليعملوا كمرتزقة فى جيوش الملوك المصريين على وجه الخصوص والعمل والتجارة على وجه العموم إلى الحد الذى أقيمت لهم مدينة «نقراطيس» بالذلقا، يضاف إلى ذلك أولئك المتعلمون والدارسون والفلاسفة الذين تعلموا فى المدارس الدينية المصرية - وبلاشك فقد نقل هؤلاء وأولئك قدراً من المعرفة بأحوال المصريين الدينية، تلك التى استهوت الاغريق وأثارت دهشتهم.

تلاحقت فى المنطقة كلها (البحر المتوسط شرقه وجنوبه وشماله)، كذلك المنطقة الواقعة على حدود الامبراطورية المصرية فى غرب آسيا تطورات هائلة عبرت عنها حركة الشعوب وتطور المجتمعات الإنسانية هناك، فلقد برزت إمبراطورية فارس القديمة، تلك التى سعت دوماً إلى الغرب كما أوضحنا، ووقفت دون أمانيتها حيناً من الوقت كل من بابل وآشور، غير أنهما لم تصمدا طويلاً.

فى شمال البحر المتوسط، فى شبه جزيرة البلوينيز واليونان الحالية، كذلك فى شبه جزيرة البلقان، كان نظام المدينة الدولة قد انتهى بعد ضربات فيليب المقدونى الذى أخضع المدن اليونانية واستكمل طريقة ابنه الاسكندر الذى ما فتئ يخدم الثورات التى قامت فى أواخر عهد أبيه وأوائل عهده. وما أن استتب له الأمر حتى توجه إلى محاربة الفرس الغرماء الرئيسيين للاغريق فى ذلك الوقت. فى تلك الفترة كانت مصر خاضعة للحكم الفارسى اعتباراً من ٣٤٢ ق. م وللمرة الثانية فى تاريخها القديم.



كان الاحتلال الفارسي في الفترة التي سيطر فيها على مصر قد أصاب المصريين بكراهية شديدة له بسبب سياسة التحقير للديانة المصرية وأربابها، فبينما كان الفرس يميلون إلى الوحدةانية، كان المصريون يؤمنون بتعدد الآلهة، في أواخر حرب المصريين ضد أولئك المستعمرين<sup>(٢)</sup>.

يضاف إلى ذلك نهب مصر المتواصل إلى الحد الذي بلغت فيه الضريبة العينية على المصريين ٣٢,٠٠٠ اثنين وثلاثين ألف أردباً من القمح<sup>(٣)</sup>.

وفي سياق هذا الصراع القائم بين الفرس والاغريق فإن الاغريق لم يتوانوا عن تقديم يد العون إلى المصريين ومساعدتهم في ثوراتهم وانتفاضاتهم ضد الفرس<sup>(٤)</sup>. وما لبث الاسكندر أن دخل مصر دون مقاومة حقيقية من حاكمها الفارسي الذي أعلن الاستسلام.

في منف تبدى الاسكندر في صورة «الهيلي الصميم» مبيناً الفرق بينه وبين الفرس، فقدم الولاء والخشوع للآلهة المحلية، وذلك في خريف عام ٣٣٢ ق. م ثم مضى إلى ساحل البحر المتوسط محاذياً فرع النيل الغربي، رشيد الآن، ليختار عند (راقودة) مدينته التي ستصبح مركزاً وعاصمة للحكم في عهد البطالمة بعد ذلك<sup>(٥)</sup>.

لم تستمر حياة الاسكندر طويلاً فقد داهمه المرض أثناء عودته من الهند ليموت وهو في الثلاثينيات من عمره ولتنقسم ممتلكاته

(امبراطوريته) بين قواده الثلاث سلوقس الذى وضع يده على بابل وبلاد الشام وفارس، وبطليموس الذى أنشأ من مصر دولته التى عرفت بالبطلمية، أما مقدونيا واليونان، فكانتا من نصيب القائد انتيمونوس.

وهكذا دخلت مصر منذ عام ٣٢٣ ق.م تقريباً طوراً جديداً تحت قيادة حكام أجانب هم البطالمة. وبدخول مصر تحت سيطرة «الاغريق» البطالمة مورس ضد شعبها الاستغلال الاقتصادى والقهر الاجتماعى والاستعلاء القومى، وتدهورت أحوال المصريين وعمولوا فى الواقع على أساس أنهم شعب ذليل مقهور<sup>(١)</sup> وعلى سبيل المثال يذكر لنا أحمد صادق سعد<sup>(٢)</sup> أن البطالمة رفعوا الضريبة العينية المفروضة على المصريين من اثنين وثلاثين ألفاً من الأارادب قمحاً أثناء الحكم الفارسى إلى ثلاثمائة ألفاً من الأارادب قمحاً أثناء الحكم البطلمى، أضيفت إليها ضريبة نقدية جديدة وصلت إلى ما يبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى (ظهرت النقود فى مصر للتداول الداخلى والخارجى فى عهد البطالمة).

على المستوى السياسى لم يكن المصريون مشاركين فى الحكم بأى قدر كذلك فى الحياة السياسية بشكل عام ورغم نشوء ما سماه «بل»<sup>(٣)</sup> بالارستقراطية الوطنية التى تولى بعض أفرادها بعض الوظائف الهامة فى السلك الادارى للدولة كذلك الكهنة من ذوى المراتب السامية، فإن هذه الارستقراطية لم يكن لها أبداً من دور غير تدعيم الحكم سواء بوظائفها أو بدعاياتها الدينية.

## الدين في مصر إبان الاحتلال البطلمي:

حين دخل الاسكندر مدينة منف متبدياً في صورة الهليني الصميم مقدماً الولاء والخضوع للآلهة المحلية المصرية، وحين ذهب إلى معبد آمون في واحة سيوه لينصبه كهنة آمون فرعوناً وإلهاً وأبناً لآلهة المصريين، فإن ذلك كان فاتحة عهد جديد للديانة المصرية القديمة، فيه ستحدر انحدارها الأخير، وفيه سيتخلى معتنقوها عنها، وفيه سوف تستلب آلهة المصريين ليعود إليهم مرة ثانية مقسمة ومتلبسة بأسماء هؤلاء الاغريق وبأزيائهم، وفيه أيضاً سوف يقوم الدين المصري القديم بنفس دوره الذي طوع من أجله... ان يبرر للحكم وأن يصبغه بالقدسية فتتكمّل بذلك سيطرة الحكم المادية الفاهرة.

يصف طاهر عبد الحكيم<sup>(٩)</sup> ذلك الموقف من كهنة آمون بأنه السقوط وطنياً ودينياً واجتماعياً بقبولهم أن يكونوا ركيزة محلية لهذا الحكم الجديد ثم للرومان بعد ذلك، مشيراً إلى أن موقفهم هذا كان نابعاً من محاولتهم الحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم والتي بلغت في ذلك الوقت حوالى ثلث مساحة الأراضى المنزرعة في مصر<sup>(١٠)</sup>، كذلك يؤكد صبحى وحيدة<sup>(١١)</sup> استناداً إلى وثيقة عثر عليها عام ١٨٧١ م بمدينة القاهرة، ان الاسكندر الأكبر قد تعهد بالمحافظة على أملاك الكهنة وأملاك معابدهم ورد إليهم ما نهبه الفرس منهم ومنها.

من ناحية أخرى يرى «بل»<sup>(١٢)</sup> (ان الاسكندر ذهب إلى معبد آمون بسيوه باعتبار أن «آمون» في الديانة المصرية القديمة يقابل عند

الاغريق إلههم «زيوس»، مضيفاً «أن كاهن آمون قد حيّا الاسكندر باعتباره ابن الإله، مستطرداً «وفى نظر المصرى كانت هذه هى التحية التقليدية الواجبة لأى إله مصرى.. إلخ».

على أية حال لقد توصل «بل» إلى أن الاسكندر لم يعرف كنه هذا الأمر<sup>(٣)</sup> وإن ما طبع عليه من تخيل وسعة خيال<sup>(٤)</sup> دفعاه للشعور بأنه شخص يحظى بشئ من التأييد والعناية السماوية الخاصة، ومنذ ذلك الحين أخذ يتصور أنه مرتبط بآمون بعلاقة خاصة (الإبن المختار للاله زيوس/ آمون).

ولا نعتقد أن رؤية بل هذه تستند إلى أى حقيقة من حقائق الحياة، أو حتى من الحقائق التى تشكل حياة الاسكندر، البالغة ثلاثة وثلاثين عاماً أمضى معظمها فى حروب، وقتل من أجل مصالح الاغريق ومصالحه الشخصية فى أن يكون امبراطوراً لامبراطورية مترامية الاطراف، غير عابىء بما حرم أى من الآلهة، فضلاً عن أن الدين المصرى القديم كان ديناً قومياً محضاً، وأن كهنته حتى وإن مالوا للحكام، فإنهم كانوا يدافعون دوماً عن التراب والسماء والحياة التى نشأت فيها آلهتهم، كما أن الاسكندر ليس له ألا يعرف «كنه» أى أمر يتعرض له (باستعراض تاريخه الدموى على الأقل) وكما أن «بل» قد ترك العنان لتقديراته «الطيبة» فقد أتاح للآخرين أن يروا أشياء أخرى فيما جرى، فهم يرون استناداً إلى الوقائع الملموسة أن علاقة الاسكندر تلك بآمون قد مكنته من نهب ثروات الشعب المصرى هو وورثته.

تكرر موقف كهنة آمون، وسيتكرر طوال عهدي الاحتلالين الإغريقي والروماني، ذلك الموقف الذى يمثل خيانة لتاريخ طويل من النضال ضد الدخيل الاجنبى بدا واضحاً وجلياً منذ عهد أحمس الأول وتواصلت صورة فى كل عهود الانكسار رغم ما اقترفه كهنة آمون من خطايا وطنية واخلاقية عندما اعتلى حريحور كرسى الحكم.

لم يتوقف أداء كهنة آمون هذا عند حد الاسكندر الأكبر فقط وإنما امتد إلى كل الاسرة البطلمية بعد ذلك مسانداً أولئك الحكام الاجانب والمتسلطين - كما رأينا - على الشعب المصرى اقتصادياً وسياسياً ممتهين كرامته اجتماعياً وطبقياً، مشوهين بنيته الثقافية.

فعندما اعتلى «بطليموس بن لاجوس» عرش مصر مؤسساً ما اصطلح عليه باسم الدولة البطلمية، وكما حدث مع الاسكندر، اعتبره كهنة آمون ملكاً وفرعوناً وإلهاً<sup>(١٣)</sup> وفى مقابل هذا التأليه وتلك الملكية، فقد اتبع بطليموس سياسته الخاصة باستعباد المصريين وإقصائهم عن أى شكل من أشكال المساواة أو المشاركة مع الإغريق.

ورغم أنه وضع قواته فى الريف المصرى، دون أن ينشئ لها مدناً على الطراز الإغريقى، كما أنه لم يمنح عواصم المديريات التى قسمت إليها مصر إدارياً والتى كان يغلب على سكانها العنصر الإغريقى والاجنبى وأبناء الارستقراطية المصرية التى سبق الحديث عنها ؛ أى

قدر من الحكم الذاتي، فإن ذلك لم يكن من قبيل المساواة في شئ وإنما من قبيل السيطرة الادارية والسياسية الكاملة.

يضاف إلى ذلك أن أعمال السخرة أو التعرض لاداء الواجبات اللازمة لصيانة قنوات الري والمحافظة على الجسور، كانت أعمال أهل الريف من المصريين وحدهم<sup>(١٤)</sup>.

من ناحية أخرى وطوال عهد الاحتلال البطلمي فقد تعددت الضرائب، وحددت أسعار مرتفعة للبضائع التي تحتكرها الحكومة انتاجاً وتجارة، وفرضت على الفلاحين تكاليف استصفاة الجنود في القرى، بل وتمليك هؤلاء الجنود حق الانتفاع الفردي بالاراضي الزراعية دون أن يكون ذلك للمصريين.

وإذا كان كهان الدين الرسمي في مصر القديمة قد فعلوا فعلهم في وضع تلك الديانة على طريق الانزواء والاختفاء، فإن أيديهم امتدت كذلك إلى العقيدة الشعبية الأكثر رسوخاً في مصر القديمة «عقيدة أوزيريس».

يشير إرمان<sup>(١٥)</sup> إلى أن أول تأثير اعترى الديانة من ناحية الاغريق، كان حسب اعتقاده (تخمينه) من عمل أحد الكهنة وهو «مانيتون» والذي كان يعمل كوسيط بين الملك والكهنة وظل يعيش في بلاط كل من بطليموس الأول والثاني، كان هذا العمل في بدايته تأويلاً لحلم حلمه بطليموس، فكان تأويلاً جريئاً (أو مجترئاً) فأفتى الكهنة أو أقتنعهم بأن

«سيرابيس» ذلك الإله المقدونى ما هو إلا «أوزوريس» المصرى الذى كان يقدسه المصريون .

وهكذا كرس رجال الدين «الكهنة» السيطرة المادية للحكم البطلمى . فقد أطلقوا تسمية جديدة لإله عبده الاغريق لكى يعبد المصريون ، ويقدسه كل من المصريين والاغريق وهو فى نفس الوقت الإله المناسب للمملكة الجديدة التى يعيش فيها الشعبان .

وبالرغم من هذا التكريس فإن «سيرابيس» هذا لم تلق عبادته سوى القليل من التأييد والقبول لدى الاهالى من المصريين ، كذلك بالنسبة للمسنوطين الاغريق .

يشير «بل»<sup>(١٦)</sup> إلى «أن تلك العبادة قد تركزت فى الإسكندرية حيث كان سيرابيس فى هذا الوقت الاله المشترك والقطب الذى تلتقى عنده الجمهرة الخليطة من الناس ... إلخ» ، وإلى أن الغرض الرئيسى لتلك الديانة كان يقصد به الاستهلاك الخارجى أكثر من الاستهلاك المحلى (داخل مصر) فكان المقصود «سيرابيس» أن يكون إله الرأى للامبراطورية البطلمية وأن يضافى عليها مزيداً من الهيبة والمنزلة بإضافة ذلك الإله المصرى إلى مجموعة الآلهة الهلينية .

وبغض النظر عما نظر إليه المؤرخون من أن ديانة «أوزوريس» وعقيدته المصرية قد انتشرت فى كل انحاء أوروبا واستمرت حتى قيام المسيحية بفضل التحوير اللفظى لإسم هذا الإله إلى «سيرابيس» أو بفضل

التطورات الاقتصادية والاجتماعية الطاحنة، فإن المصريين وإن كان لهم أن يفخروا بعالمية إلههم، فإنه قد ساءهم هذا التحوير وهذا الاستلاب فقد ظل الكهنة في معابدهم وفي الصور التي صوروها لأوزوريس، يحافظون على مصرية هذا الدين وأبقوه كما هو<sup>(١٧)</sup>. إلا أن ابتعاداً سوف تعمقه وقائع الاحتلال الروماني على وجدان وعقل المصريين فتفقدهم اليقين الذي احتفظوا به طويلاً ليجدوه في النهاية في الديانة المسيحية.

وفي نهاية عرضنا السريع لأحوال مصر الدينية في عهد الاحتلال الاغريقي البطلمي نورد هنا حالة أخرى من حالات التردى التي وصلت إليها المؤسسة الدينية في مصر على يد كهنة آمون وبطليموس الرابع والذي بدأت في عهده نذر الكارثة وعلامات التدهور في الدولة البطلمية، .... يصفه كهنة آمون في مخطوطة يشير إليها «بل»<sup>(١٨)</sup> أنه حورس الشاب ذو القلب العظيم المنطوى على الوفاء والاخلاص للآلهة، وسعت حمايته الناس.... ومثل بتاح..... إلى آخر المخطوطة.... بطليموس الرابع هذا يصفه «بل» بأنه كان «غراً، فاجراً منهكاً مستضعفاً وذليلاً وألعوبة في يد وزيره «سوسيبيوس» الذي لا ضمير له ولا فضيلة». وبينما كان الكهنة يفعلون ذلك كان المصريون الذين شكلت منهم ولأول مرة كتبية أو فرقة عسكرية تحرز النصر على السلوقيين في العريش عام ٢١٧ ق.م، وبينما كان الكهنة يغوصون في الوحل والضلال، عاد هؤلاء المصريون ليشعلوا انتفاضتهم بكبرياء المنتصرين مطالبين بالمساواة....



لقد تسارعت الأمور بعد ذلك إلى الحد الذى استطاعت فيه روما أن تدخل أنفها فى كل شئ فى المنطقة التى تضم مصر والشام والتى كانت مقسمة بين كل من الدولتين السلوقية والبطلمية، وخلال هذا الصراع بين هاتين الدولتين اكتفت روما أولاً بوضع الشام كله تحت سيطرتها وإزاحة السلوقيين نهائياً من هناك.

أما الدولة البطلمية فقد تربعت على عرشها فى نهاية عهدها ملكة وصفت ظلاماً بأنها كانت لعوباً وعاهراً... إلخ إلا أنها فى الحقيقة كانت المناوئ القوى لروما والراغبة فى بناء امبراطورية واسعة لها إلى الحد الذى استطاعت فيه أن تستميل انطونيوس بعد ما استمالت قيصر لبناء تلك الامبراطورية بـ «المشاركة» غير أن معركة «إكتيوم» البحرية قد حسمت الأمر نهائياً لصالح «أوكتافىوس» والامبراطورية الرومانية بدخول أوكتافىوس مصر عام ٣٠ ق.م.

بدخول أوكتافىوس هذا تكون روما قد استكملت سيطرتها على كل دول حوض البحر المتوسط، ويكون أوكتافىوس أيضاً قد وضع النهاية الأخيرة لعصر الجمهورية الرومانية مقيماً امبراطوريته وانفراده بالسلطة.

وبمجرد دخول أوكتافىوس إلى الإسكندرية (عاصمة مصر البطلمية والرومانية أيضاً) فقد فرض جزية كبيرة على أهل البلاد ألا وهى ضريبة الرأس والتى كانت تدفع عن الفرد منذ بلوغه الرابعة عشر

وحتى بلوغه الستين أو الخامسة والستين، بالإضافة إلى ضريبة عينية أخرى من القمح تشحن كل عام إلى روما.

واستكمالاً لقراراته وضماناً لتنفيذها أيضاً فقد اهتم بوضع نظام دقيق يكفل خضوع مصر لروما وعدم الفياح بالثورات فنشر قوات كبيرة ومدرية في الإسكندرية وعند حصن بابلليون (مصر القديمة الآن) ثم فرقة ثالثة في مركز الثورات (مدينة طيبة مركز عبادة الإله آمون) ثم فرقاً أخرى في المناطق المنتجة للثروات والمراكز الجمركية<sup>(١٩)</sup>.

ويبدو أنه بعد دخول أوكتافقيوس إلى مصر وقواده لحكم الامبراطورية، حدث صراع بينه وبين أعضاء مجلس السناتو، فعقدت تسوية عام ٣١ ق.م أصبحت الامبراطورية بمقتضاها من حيث الشكل السياسي ثنائية الحكم بين كل من أوكتافقيوس ومجلس السناتو بحيث يشارك كلاهما في إدارة شئون الولايات، إلا أنه في واقع الأمر فقد كان أوكتافقيوس، الذي أصبح امبراطوراً، يلقب بـ «أغسطس» كان يتمتع بسلطات اعظم يحد بها من سلطان غيره على جميع انحاء الأمبراطورية ويخول له حق التدخل حتى في الولايات التي تتبع إدارتها لمجلس السناتو، وذلك السلطان الذي ينبع من كون السلطة الحربية متمركزة في يده.

وعلى هذا الاساس، فقد خضعت مصر مباشرة لسلطة «أغسطس» الذي اعتبرها مقراً للقيادة الجنوبية وعين عليها حاكماً من الفرسان،

كان هو الوحيد الذى تولى أمره جيش مؤلف من عدة فرق رومانية فى كل انحاء الولايات الرومانية.

وحتى يضمن اغسطس بقاء مصر داخل الإمبراطورية دائماً فإنه أصدر قراراً سرياً ائتمن عليه أحد قواده يقضى بعدم السماح لأى عضو من أعضاء السناتو أو أحد الفرسان النابهين بارتياح البلاد المصرية ودخولها دون تصريح من الإمبراطور<sup>(٢٠)</sup>.

وبعد أن فرض الضرائب المالية والعينية والتي بلغت ثمانمائة ألف من الارادب قمحاً وحوالى أربعة ملايين ونصف من الجنيهات<sup>(٢١)</sup>، اتجه إلى العمل الهيلينى ممثلاً فى مدينة الإسكندرية حيث وضع الأسس التى تكفل الحيلولة دون أن يكون للسكندريين أى نشاط سياسى منظم حتى لا يتيح لهم أى فرصة لإحياء مجد البطالمة القديم، فمنع أن يكون لهم مجلس تشريعى على عكس ما جرى مع اليهود «السكندريين» أيضاً<sup>(٢٢)</sup>.

على أنه فى عهد سينميوس سيفروس فى عام ٢٠٠ م تم إنشاء مجلس شيوخ أو مجالس بلديه فى مراكز حواضر الأقسام الادارية، كذلك خول للسكندريين مجلساً مشابهاً، غير أن تلك المجالس لم تكن تكفل لمدهنها حتى حق التمتع بالحقوق البلدية، فالقائد العسكرى للمدينة أو المركز كان لا يزال هو المسيطر من الناحية الادارية على القسم أو المدينة بل وعلى المجلس نفسه.

لم يمض سوى عام واحد على دخول أوكتافيوس مصر إلا وقلبت له طيبة ظهر المجن، وكعادتها قامت بالثورة ضده بسبب تعسف الحكام الرومان في تحصيل الضرائب، أو بسبب فرض ضرائب جديدة أو «لتنبية الحكام الجدد إلى أن «طيبة» قلب مصر دائما. على أية حال قمعت الثورة قمعا وحشيا على يد «جايوس كورنيليوس» أول والٍ على مصر من قبل اغسطس، ذلك الذى أشار له د. عبد اللطيف أحمد على<sup>(٢٤)</sup> بأنه صار مزهوا بانتصاره إلى الحد الذى دفع اغسطس إلى عزله ثم انتحاره بعد ذلك، الأمر الذى يفسر إلى أى حد كان أغسطس حريصا على أن تكون مصر فى أيدي الإمبراطورية دائما.

وفيما يتعلق بالوضع الإدارى والاقتصادى والاجتماعى لمصر فى عهد الاحتلال الرومانى فقد أصبح الامبراطور هو الملك الشرعى وفرعون مصر، وإن لم تشر أى من المصادر التى تحت أيدينا إلى صبغ هذا الامبراطور بالصبغة الدينية كما حدث مع البطالمة، كما وأن عبادة الامبراطور لم تكن قد بدأت بعد فى ذلك الوقت.

لم يدخل أغسطس الا تعديلات ضرورية جدا فى النظام الإدارى لمصر والذى كان قائما فى عهد البطالمة وكانت هذه التعديلات خاصة بوظيفة الوالى المقيم فى مصر واختصاصاته، كذلك أبقى اغسطس على التقسيمات الادارية الرئيسية لمصر التى انشئت فى أواخر العصر البطلمى وهى الدلتا والأقاليم السبعة وأرسينوى (مصر الوسطى حاليا) وطيبة وتشمل صعيد مصر الآن.

من الناحية الاقتصادية، قام أغسطس بتأسيس سياسة زراعية جديدة لمصر كان محورها الملكية الخاصة ونشجيع الاستثمارات الشخصية بأنواعها، ويعد هذا المتغير هو الفرق بين السياسة الزراعية في العهد البطلمي وبين السياسة الزراعية في العهد الروماني<sup>(٢٥)</sup> غير أن ما يلفت إليه النظر هنا هو أن الإمبراطور الروماني قد أعلن أن الأراضي الخصبة والمزروعة ملك له بحق الفتح وعلى ذلك كانت الملكية بمثابة حق انتفاع خاصة في تلك الحيازات القابلة للزراعة والمهجورة والتي منحها لآلاف الموظفين وأصحاب الأموال والتجار من الإغريق والرومان، ويصف أحمد صادق سعد<sup>(٢٦)</sup> ذلك الأمر بأنه تطور تاريخي في مجال تطور قوى الإنتاج في مصر، يضاف إلى ذلك وضع سياسة جديدة للرى أمنت وضمنت الزراعة في حالة الفيضانات العادية، ومن ناحية أخرى فقد واكب العهد الإمبراطوري الجديد أن اكتشفت الرياح الموسمية والتي كانت سبباً في نشاط التجارة الهندية الشرقية وزيادتها بدرجة ملحوظة<sup>(٢٧)</sup>.

غير أن أهم ما يلفت النظر في تلك السياسات الاقتصادية الرومانية، انها كانت تستهدف في الأساس إمداد روما باحتياجاتها المادية والعينية مما يعنى استنزاف القدرة الاقتصادية المصرية<sup>(٢٨)</sup> ووفقاً لهذه الأوضاع فقد تدهورت أحوال مصر بشدة ابتداء من القرن الثاني الميلادي نتيجة لمجمل السياسات الرومانية، وكما يقول «بل»<sup>(٢٩)</sup> عندما يتحدث عن بعض الإباطرة الرومان الذين حاولوا الاقتراب من العدالة في تعاملهم

مع مصر وشعبها «ولكن لا جدوى من تلك المفاصد النبيلة، طالما تمسك الرومان بأهداب الفكرة الاساسية، وهى أن مصر بقرة حلوب تدر لبنها لصالح روما، وما يعود عليها بالخير، ولا ريب أن تلك البقرة كانت غنية بلبنها، غير أن روما حرصت على استنزافها إلى آخر قطرة بانتقام» .

وأمام هذا الاستغلال البشع والذي كان يقوم على نزح ثروات المصريين ونتاج عملهم لم يكن أمام الفلاحين إلا مغادرة الأرض وأماكن إقامتهم والفرار إلى الجبال والصحراء أو الاعتصام بالمعابد أو الفرار والتسلل إلى المدن الكبيرة وأهمها الإسكندرية، ولم يكن أمام الإمبراطورية إلا اتخاذ إجراءات أكثر بطشاً، ذلك أن الرائد الأول فى أى اجراء رومانى هو مصلحة خزانة الحكومة التى ضعفت وتهرأت وهرب منها دافعوا الضرائب<sup>(٣٠)</sup> .

أما من الناحية الاجتماعية فقد كانت سياسة اغسطس وخلفاؤه قائمة على تفسيم الناس إلى طبقات، متفاوتة شيئاً فشيئاً وهو النظام الذى طالما اعتز به الرومان، وعلى أية حال فقد تمتع الرومان فقط بحق «الرعوية» أو «المواطنة» يليهم فى الترتيب الطبقة اليهود ثم الاغريق الذين يعيشون فى الإسكندرية أو المدن التى أسست لهم فى العصر البطلمى، ثم يلى ذلك طائفة الكهنة (التي حددت تحديداً صارماً) وفى آخر السلم الطبقة والاجتماعى يأتى المصريون أصحاب البلاد

الأصليون ومطعمو روما ومواطنيها كما يقول المثل الشائع «من اللحم الحى».

وفى عهد كاركالا وتحديداً فى عام ٢١٢ م تم منح المواطنة الرومانية لجميع السكان فى كل الإمبراطورية بمقتضى الدستور «الانطونينى»، غير أن المصريين الذين كان عليهم التمتع بهذا الحق تعرضوا لدفع ضريبة بقدر بنسبة الخمس على الإرث والايولة للتركات، دون أن يعنى ذلك الاعفاء من ضريبة الرأس المفردة على المصريين<sup>(٣١)</sup>.

وفيما يتعلق بالأحوال الدينية فى مصر فقد وضع أغسطس نظاماً دقيقاً يستهدف مراقبة المعابد وضبط آدائها، وخص منها على وجه التحديد المعابد والكهنة المصريين خلفاؤه على ذلك النظام.

وبشكل عام فإن السياسة الدينية للرومان توضح لنا مدى النزعة التسلطية للدولة المركزية من ناحية ومن ناحية أخرى ابتعادها الفعلى عن أمور الدين (عبادة الإمبراطور استهدفت الولاء للإمبراطورية فقط) ومن ناحية ثالثة تبين مدى اهتمامها بمصر تحديداً باعتبارها ولاية ذات وضع خاص، من الضرورى المحافظة عليها وعلى وحدتها الداخلية باعتبارها مقر القيادة الجنوبية للإمبراطورية كلها.

كان كهنة آمون قد استطاعوا فى أخريات الدولة الرومانية أن يحصلوا على نفوذ واسع وانتزعوا امتيازات كثيرة وهبات من الأراضى،

بل ان المعابد الصغيرة استطاعت أن تحصل على حق (الاستجارة) ، ذلك الحق الذى كان مقتصرأ على بعض المعابد الكبيرة فقط ومن ثم أدرك أغسطس أهمية أن يسيطر على المعابد وشئونها فأقام لأول مرة فى مصر منصب: «الكاهن الأعلى للإسكندرية وكل مصر» وكان شاغله موظفا مدنيا روماني الجنسية يزاول سلطة دقيقة على كل ما يتصل بشئون العبادة والمعابد، حيث كان يقدم له سنوياً قائمة بأسماء المعابد وأسماء الكهنة وممتلكات تلك المعابد وحساباتها، ووفقا لهذا تم اعفاء عدد محدد من الكهنة من دفع ضريبة الرأس، ولم يعف أغسطس الكهنة من القيام بالخدمات الإلزامية والسخرة وإن كانت هناك حالات استثنائية تم فيها الاعفاء.

كانت هذه السياسة قد أفلحت فى تقليص نفوذهم، ففيما عدا الثورة التى قامت فى طيبة التى سبق الحديث عنها، لم تحدث أى ثورة مماثلة طوال القرنين التاليين<sup>(٣٣)</sup>، مما دفع د. إبراهيم نصحي إلى القول بأن سياسة أغسطس وخلفائه خلال القرنين الأول والثانى الميلادى قد وضعت حداً لزعامة طيبة فى قيادة الثورات الوطنية.

لقد تعددت فى مصر آنذاك وطوال الاحتلال الرومانى الثورات المصرية، ولكنها أبداً لم تكن دينية أو بسبب ديانة المصريين، وحتى التى تصدى لقيادتها الكهنة كانت ثورات ذات نزوع بطلمى أو احتجاجاً على فرض الضرائب والنعسف فى جبايتها، كذلك فقد اتخذت حركة الشعب مظهراً آخر حين عجز عن القيام بالثورة أو مقاومة سيادة



البطش، كان هذا المظهر هو ترك الأرض وبالتالي ترك التكليفات والامتناع عن سداد الضرائب التي كان على الفلاحين المصريين أن يدفعوها أو يقوموا بها في حال بقائهم في الأرض.

تشير آمال الروبي<sup>(٣٤)</sup> إلى أن أغسطس والدولة الرومانية عموماً قد سلكت طريق التسامح الديني في سياستها مع الديانة المصرية وأن سياسة الرقابة على المعابد قد حدثت من سلطة الكهنة غير أنها تشير من ناحية أخرى إلى أن تلك الرقابة وإن كفلت لهم معاشهم، فإنها تثير الشكوك حول تلك الإعانات التي قرر لها أغسطس وخلفاؤه في مدى تأثيرها على موقف الكهنة عموماً في الوقت نفسه كان للآلهة المصرية أثر كبير على نفوس الرومان بسبب قدم عهدا وغموض أسرارها، فضلاً عن الاعتقاد السائد بأن تلك الآلهة تحمي البلاد التي يقيمون فيها كغرباء<sup>(٣٥)</sup>.

ومن ناحية أخرى فقد انتشرت عبادة الثالوث المقدس (بعد التعديلات البطلمية) في كثير من أنحاء الإمبراطورية حتى لقد غدت عبادة أوزوريس تمارس في روما نفسها قبل أن يدخل أغسطس مصر، ووصل الأمر إلى إعلان الإمبراطور الروماني دوميتيان (٩٦/٨١ م) إدخال سرابيس وإيزيس رسمياً إلى روما وإنشاء معبد لها<sup>(٣٦)</sup>.

وهناك أمر آخر يخص الحالة الدينية في مصر طوال عهدي الإمبراطورية الرومانية ألا وهو عبادة الإمبراطور، فعلى عكس البطالمة كان الاباطرة يعبدون كأشخاص مقدسة وليس بوصفهم آلهة وأبناء

آلهة، كما أن العبادة كانت قاصرة على الأباطرة بعد موتهم، وكان كاهن الإسكندرية مسئولاً عن تلك العبادة (الموظف المدني السابق الحديث عنه) وكانت تلك العبادة رسمية تقام طقوسها في المناسبات العامة دون أن يكون لها طابع شخصي أو تعبد في المنازل<sup>(٣٧)</sup>.

ومن هنا في ختام حديثنا عن أحوال مصر في عهد الاحتلال الروماني لابد وأن نشير في عجالة إلى الأسباب التي أدت بدقلديانوس إلى سن اضطهاده الواسع ضد المسيحيين في كل أنحاء الإمبراطورية بما فيها مصر والتي اختصت بنصيب كبير من هذا الاضطهاد الذي اسفر عن مصرع مئات الآلاف من المسيحيين المصريين الذين استشهدوا في سبيل عقيدتهم الدينية وسمى عهد حكم دقلديانوس كله بعصر الشهداء واتخذت حقبة بداية حكمة بداية للتقويم القبطي. لقد تعرضت الامبراطورية الرومانية لأزمات متلاحقة طوال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، واحتدمت في أخريات القرن الثالث فما كان من جيش الشرق إلا أن دفع بدقلديانوس إلى عرش الامبراطورية إنقاذاً لها من الانهيار والتفكك والضياح، ولأن مصالح الإمبراطورية هي الأهم ومصالح الشعوب لا تعير أى حاكم روماني اهتماماً بالقدر الذى تعنيه الإمبراطورية، وكما يحدثنا التاريخ الإنسانى دوماً، بأنه عند الازمات التى يستعصى فيها الحل على العقل الإنسانى وتفكيره الرحب يبرز العنف والقهر ممثلين كجناحين للحكم المطلق.

بعنفه وقهره واستبداده أحدث الإمبراطور دقلديانوس تحسناً في أمور دولته وإمبراطوريته إلى حين، فأعاد تنظيم الولايات، وألغى التمييز بينها من حيث التبعية للسناتو والإمبراطور، وخفض مساحة الولايات، وفصل السلطة الحربية عن المدنية، وضم ولايات إلى بعضها وفي مجال الضرائب أعاد تكوين النظام الضرائبي ووضع أساساً ثابتاً لجباية الضرائب ومواردها<sup>(٣٨)</sup> وحين ننظر إلى تلك الإصلاحات نجدها كلها تنحصر في مجال الإدارة الفعالة لشئون الإمبراطورية ولا تعنى من قريب أو بعيد مصالح خاصة بشعوب هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف.

لقد كانت مصالح الإمبراطورية وحاكمها دقلديانوس تتعارض تعارضاً تاماً مع مصالح الشعوب الخاضعة لهذه الإمبراطورية، ولقد كانت عبادة الإمبراطور والتي كانت كما سبق الذكر عبادة رسمية بجانب العبادات العديدة القائمة، لكن إقامتها كان ضرورياً كأحد الوشائج التي كانت تربط وتؤلف بين أجزاء الإمبراطورية مترامية الأطراف.

لقد كان هذا الطقس الذي يقدر فيه الإمبراطور أحد الأسس التي ميزت التسامح الديني لدى الإمبراطورية الرومانية فالعبادة لا تعنى كونهم آلهة وإنما «مقدسون» والإمبراطورية بالتالي مقدسة. كما كانت هذه العبادة نفسها وفقاً لأفكار الإمبراطورية آنذاك تركز الولاء للإمبراطورية.

لقد كان اليهود يرفضون عبادة الإمبراطور، واعتبر ذلك حقاً لهم (وعلى مريض) باعتبار أن دينهم تمتد أصوله إلى قرون قبل قيام الإمبراطورية، فضلاً عن أن الدين اليهودي ليس عالمياً عند اتباعه إنما هو محدود بشعب الله المختار كما قالوا ويقولون.

أما الديانة المسيحية فهي ترفض بداية أن تعبد غير الله إلهها، وديانة عالمية لكل البشر لا تضع حظراً على أحد في ارتياد رحابها ثم إنها من ناحية أخرى ربطت بين الأخلاق والأوضاع الاجتماعية ووضعت حداً فاصلاً بين الوثنية والوحدانية، حتى في علاقة المسيحي بالدولة.

من هنا فقد كانت المسيحية وانتشارها خروجاً على الإمبراطور والإمبراطورية، ومن هنا بدأت المذابح للمسيحيين في مصر وفي كل أنحاء الإمبراطورية<sup>(٣٩)</sup> غير أن المذابح التي أقيمت للمصريين لم تكن لتتوقف على عهد دقلديانوس، لقد استمرت طويلاً بعد ذلك وحتى عام ٦٤١ م وهذا ما سوف نتناوله في الفصل القادم.

فإذا جئنا إلى العصر البيزنطي فإننا لا نستطيع أن نتحدث بشكل أساسي إلا عن الاعتناق الواسع للمسيحية وبداية البروز العلني للكنيسة المصرية ثم تحولها إلى مؤسسة قومية ودينية في آن واحد. هذا إذا ما اعتمدنا مقولة أن التاريخ في الأساس تصنعه الشعوب، غير أننا سوف

نجل في بداية هذا الفصل عرضاً للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي جرت في تلك الفترة .

يعد عهد دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) فاتحة لعهد الدولة البيزنطية في التاريخ، تلك الدولة التي لم تتأسس فعلياً إلا عام ٣٩٥ م بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين الأول في الشرق وهو الإمبراطورية البيزنطية والثاني في الغرب وهو الامبراطورية الرومانية المقدسة (روما) والتي انهارت بعد ذلك في عام ٤٧٦ م على أيدي البرابرة وصعد بعدها نجم البابوية .

وكما لعب دقلديانوس دوره في الاصلاحات وما صاحبها من اضطهادات، لعب قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧)، الذي خلفه، دوره في الاعتراف بالمسيحية (لمصلحة الإمبراطورية أيضاً) وفي وقف الاضطهاد والتمهيد لانقسام الإمبراطورية بإنشاء عاصمة جديدة لها في القسطنطينية والتي أصبحت فيما بعد عاصمة للإمبراطورية البيزنطية .

وفقاً لهذا التقسيم أصبحت مصر خاضعة للإمبراطور البيزنطي بحكم موقعها الجغرافي وخضعت لكل الإجراءات والاصلاحات الإدارية التي قامت بها هذه الإمبراطورية .

من الملاحظ ان كل التقسيمات الإدارية التي طبقت في مصر آنذاك كانت تستهدف المزيد من السيطرة المدنية والعسكرية في مواجهة حالة الانفصال الحاد بين الشعب المصري والإمبراطورية بسبب الخلاف الديني والعقدي الذي ظل مستحكماً بعد ما أعلن قسطنطين الاعتراف

الرسمي بالمسيحية ثم اعلانها الديانة الرسمية للإمبراطورية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أواخر القرن الرابع (٣٧٩-٣٩٥ م).

لقد وصل الأمر إلى حد الانقلاب في طبيعة النظام الإداري المتبع منذ عهد أغسطس والذي كان يفصل دوماً بين السلطتين المدنية والعسكرية، فتم إدماجهما في القرن الخامس لضمان أكبر سيطرة ممكنة على مصر.

✳ وعندما اعتلى جستنيان الحكم (٥٢٧-٥٦٥ ق.م) أصدر قانوناً يستهدف إضعاف مقاومة المصريين وضمان خضوعهم لسلطة الإمبراطورية، ورغم أن القانون قد حقق أهدافه جزئياً إلا أن هذا القانون نفسه قد اضعف إلى حد بعيد وحدة البلاد السياسية بتعدد أقسامها ومهد في الوقت نفسه لسهولة استيلاء العرب على مصر<sup>(٤١)</sup>.

وفيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية فقد وجدت ثلاثة أنواع من الأراضي الزراعية من حيث الملكية وهي أراضي التاج وأراضي الكنائس وأراضي الأملاك الخاصة، وتعتبر جميعاً في الوقت نفسه من الضياع الإمبراطورية، ولم يكن للفلاحين المصريين أى ملكية سوى قوة عملهم ✳.

في الوقت نفسه تعددت أنواع الضرائب ما بين عينية ونقدية وذلك على الأراضي الزراعية وضربت ضريبة الرأس والتي كانت تعد من أهم مصادر الدخل للحكومة البيزنطية، وأضيفت في عهد جستنيان أيضاً ضرائب غير مباشرة تمثلت في المكوس الجمركية التي تفرض على البضائع الواردة والخارجة من مصر<sup>(٤١)</sup>.

ويشير أحمد صادق سعد<sup>(٤٢)</sup> إلى أنه نتيجة للسياسات المالية والإدارية للدولة البيزنطية فضلاً عن التغيرات الدولية في المنطقة؛ فقد وهنت مصر اقتصادياً ولم تستطع التطورات الاقتصادية التي حدثت فيها إبان عصر الرومان والبيزنطيين أن تحدث أثراً في النقدم الاقتصادي والاجتماعي آنذاك، وأنه كما حدث في العصر الروماني فإن العصر البيزنطي شهد أيضاً نزحاً للثروة من مصر واستنزافاً للقدرة الاقتصادية المصرية بشكل عام ومن ثم عرقلة براكم الفائض الذي يسمح بنمو قوى الانتاج ليحدث الانتقال الحاسم إلى طور اجتماعي جديد.

وفيما يتعلق بالحياة الاجتماعية فلقد تربع على قمة الهرم الاجتماعي في مصر الرومان ثم اليونانيون يليهم اليهود الذين كونوا جالية كبيرة من السكان آنذاك، ثم الاجانب من العلماء والتجار.

أما المصريون وهم السكان الوطنيون الاصليون فقد وقع عليهم العبء الأكبر من العمل والشفاء، وأثقل كاهلهم بالضرائب النقدية والعينية، وشكل ناتج عملهم مجمل الثروات التي نزحت من مصر إلى القسطنطينية أو وجهت إلى خدمة الجيوش الامبراطورية وإدارتها وثراء موظفيها.

كانت هذه هي أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية على مدى ما يقرب من ألف عام (تحديداً ٩٧٣ عاماً) عشرة قرون منذ دخول الاغريق إلى مصر عام ٣٣٢ ق.م وحتى

دخول عمرو بن العاص مصر عام ٦٤١ م . عشرة قرون من الزمان ارتبط فيها الصراع الاجتماعي بالصراع الوطني من أجل التحرر من الاجنبى الدخيل . نهبت مصر خلالها كثيرا لكنها بقيت ، .... ضرب حول عقلها الحصار ... إلا أن الافق كان أرحب ... فلاحوها ومنتجوها حفظوا فى قرار القلب وسويدائه العهد الاقدم على الاطلاق .... والأبقى مرشداً على الدوام ... عهد العدل ، وميزانه وماعت .... سلبت العفيدة بفعل من سقطوا من كهنتها ، لكن الأهل الذين صنعوا الوادى فأعطاهم الخير والاطمئنان والصبر الجميل ، كان لهم الإيمان الراسخ .

من الأبد جاءت مصر بالعمل والجهد ، وبالاخلاص الثقافى صنعت الحياة المديدة على أرضها ، وبرغم القهر الطويل والعاتى ... ترسمت ملامحها ، وظهرت متجالية دوماً فى أبنائها ، فكانوا الحافظين لها ، وكانت هى الحانية الضامة لهم .... وأخيراً تلك هى مصر وأولئك هم ابناءؤها ، فى فترة فاصلة فى تاريخها وتاريخهم الطويل ، مصر حين يسلبها الغازى فيقولون عنها الرومانية والبيزنطية ، ويحرمون أبنائها من حق المواطنة ، ليسلبوا آخر قطرة من عرقهم .. القمح والخبز ناتج الجهد والعمل ، لكنها هى مصر .. الشعب حين ينتزع إيمانه ويمزج بين هذا الإيمان ، وبين الحق والعدل والوطن ، ليتواصل التاريخ بمصر القبطية ، وبمصر القبطية تهترىء الدولة البيزنطية ، وتضعف وتتهاوى وتتلأشى .... مصر وكما هى من الأبد جاءت فهى إلى الأبد تبقى .



## المراجع:

- (١) أدولف ارمان - مرجع سابق ص ٣٨٦-٣٨٧، ٤٦٥-٤٦٦.
- (٢) سير هارولد أدريش بل - مصر الهلينية من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى  
ترجمة زكى على - دار المعارف - سلسلة المكتبة التاريخية طبعة ١٩٥٩ -  
ص ٤٦.
- (٣) أحمد صادق سعد - مرجع سابق ص ٨٥.
- (٤) هارولد بل - نفس المرجع نفس الصفحة.
- (٥) هارولد بل - نفس المرجع نفس الصفحة.
- (٦) هارولد بل - مرجع سابق ص ٥٣-٥٧، أحمد صادق سعد (م.س.ز) ص  
١٠٨-١٠٩.
- (٧) أحمد صادق سعد مرجع سابق ص ٨٠٧٩.
- (٨) هارولد بل - مرجع سابق ص ٥٥-٥٦.
- (٩) د. طاهر عبد الحكيم - مرجع سابق ص ٨٥.
- (١٠) أحمد صادق سعد - مرجع سابق ص ١٢٤.
- (١١) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ط٢- مكتبة مذبولى - القاهرة  
ص ٤٤ ب-ت.
- (١٢) هارولد بل - مرجع سابق ص ٤٧.
- (١٣) هارولد بل - مرجع سبق ذكره ص ٥٢.
- (١٤) هارولد بل - مرجع سابق ص ٥٢/٥٣.
- (١٥) أدولف ارمان - مرجع سابق ص ٤٢٥-٤٢٧.

- 
- (١٦) هارولدبل - مرجع سابق ص ٥٩/٦٠ .
- (١٧) إرمان - مرجع سابق ص ٤٢٧ .
- (١٨) هارولدبل - مرجع سابق ص ٨١/٨٢ .
- (١٩) أ. د. آمال محمد الروبي - مصر في عصر الرومان - دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية في ضوء الوثائق الرومانية (٣-٢٨٤ ق.م) القاهرة طبعة ١٩٨٠ ص ٥٤/٥٨ .
- ب - هارولدبل - مرجع سابق ص ٩٠/٩١/٩٥ .
- (٢٠) هارولدبل - مرجع سابق ص ٩٠/٩٢ .
- (٢١) أحمد صادق سعد - مرجع سابق ص ٧٩ .
- (٢٢) هارولدبل - مرجع سابق ص ١٢٣/١٢٤ .
- (٢٣) د. آمال محمد الروبي - مرجع سابق ص ٦١ .
- (٢٤) د. عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الوثائق البردية طبعة ١٩٦٥ - دار النهضة العربية ص ٥٨ .
- (٢٥) د. آمال الروبي - مرجع سابق ص ٦٨-٧٠ .
- (٢٦) أحمد صادق سعد - مرجع سابق ص ٩٠-٩١ .
- (٢٧) هارولدبل - مرجع سابق ص ١٠٢ .
- (٢٨) أ - أحمد صادق سعد مرجع سابق ص ٨٠ .
- ب - هارولدبل - مرجع سابق ص ١٠٢ .
- (٢٩) هارولدبل - مرجع سابق ص ١٠٣ .
- (٣٠) هارولدبل - مرجع سابق ص ١٠٤-١٠٩ .
-

- 
- (٣١) هارولد بل - مرجع سابق ص ١٢٥ .
- (٣٢) آمال الرويى - مرجع سابق ص ٧٠/٧٢ .
- (٣٣) إبراهيم نصحى - تاريخ مصر فى عصر البطالمة ح ٣ - القاهرة ١٩٦٠ - دار النهضة العربية ص ٨٠-١٨٧ .
- (٣٤) آمال الرويى - مرجع سابق ص ٧٢ .
- (٣٥) نفس المرجع ص ٣٠٠-٣٠١ .
- (٣٦) إرمان - مرجع سابق ص ٤٦٦ .
- (٣٧) آمال الرويى - مرجع سابق ص ٣٠١ .
- (٣٨) هارولد بل - مرجع سابق ص ١٣١-١٣٥ - ١٣٨-١٤٠-١١٥-١١٨ .
- (٣٩) أ- د. لىلى عبد الجواد إسماعيل - محاضرات فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى - كلية الآداب .
- ب - جامعة القاهرة - دار الثقافة العربية - بدون تاريخ - ص ٩٦-١١٢ .
- ج - هارولد بل - مرجع سبق ذكره ص ١٣٦-١٣٨، ١٥٥-١٦١ .
- (٤٠) أ- د. لىلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سابق ص ١١٢/١١٣ .
- ب - هارولد بل - مرجع سابق ص ١٦٢-١٦٧ .
- (٤١) أحمد صادق سعد - مرجع سابق ص ٧٨-٨٠ .
- (٤٢) د. لىلى عبد الحواد إسماعيل - مرجع سابق ص ١٥٦-١٥٨ .





## الفصل الرابع

المصريون يعملون بالدم  
مصر منذ منتصف القرن الأول الميلادي  
وحتى دخول العرب

يقول أحد الباحثين الفرنسيين فى التاريخ الدينى للعالم «لقد انتصر المسيح لأن سبارتاكوس قد انهزم»<sup>(١)</sup> ويبدو أن هذه المقولة تلخص إلى حد كبير طبيعة الحياة التى سادت فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف.

بغض النظر عن النزاعات التى سادت بين عناصر الحكم فى روما والتى أفضت فى النهاية إلى اعتلاء القادة العسكريين سدة الحكم منذ عهد دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥ م)؛ فإن الثورات الشعبية فى معظم أنحاء الامبراطورية لم تنقطع فى منطقة أو ولاية إلا لتتسبب فى أخرى وذلك من جرّاء الحكم المتعسف والضرائب الفادحة، تلك الآليات التى شكلت محور السياسة الرومانية والتى لم تكن ترى إلا مصالح روما والمواطنين الرومان، الاحرار منهم تحديداً.

ويبدو أيضاً أن تلك المقولة التى تحدثت عن سبارتاكوس والمسيح تعبر عن حقيقة قد يصعب إثباتها بتتابع الوقائع، غير أن السياق العام لما جرى آنذاك يؤهل تلك المقولة لأن تكون حقيقة كبرى.

ظهر السيد المسيح في فلسطين - مدينة بيت لحم - في الثلث الأول من القرن الأول الميلادي ليبشر بتعاليمه ويضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية تؤكد وجوب تكريس الإنسان نفسه لله، وبالمحبة بين الناس جميعاً دون النظر للجنس أو المركز المادي، كذلك ربطت تعاليم السيد المسيح بين الحياة الأخلاقية والدين\*، كما أعطت تعاليمه الأمل للمضطهدين، والفقراء، وعديمي الحظ، في حياة أخرى تقدم للأبرار المسرات التي حرموا منها في الحياة الدنيا. لقد جاءت هذه التعاليم في مجملها في مواجهة هذا الظلم العاتى الذى يحيق بالناس فى ذلك العالم الذى كانت طاغيته الكبرى الإمبراطورية الرومانية.

فى نفس الوقت كان الاداء الذى يمارسه اليهود وأحبارهم قد بلغ درجة من القسوة والانحراف والتهافت الدنيوى إلى الحد الذى يستدعى الإصلاح والتقويم<sup>(٣)</sup>. فى كل الأحوال فإن بداية انتشار الديانة المسيحية لم تستدع من الرومان اتخاذ موقف منها بل اتسم الأمر بالتسامح، كما هو حادث مع الديانات والمعتقدات المتعددة الأخرى، من حيث الاعتراف بعبادة الإمبراطور القائم (إجراء يشبه يمين الولاء للحاكم).

غير أنه وقبل انتهاء القرن الأول الميلادى بدأ المسيحيون يظهرون كأصحاب ديانة مختلفة وليست فرعاً من اليهودية، كما وأن أتباع الدين الجديد رفضوا الخدمة فى الجيش، كما رفضوا تقديم الفرائين لتمثال الامبراطور، فضلاً عن اقامتهم لاجتماعاتهم السرية لمباشرة طقوسهم



الدينية، يضاف إلى كل ما تقدم أيضاً أن ذلك الدين الجديد واجتماعات معتنقيه كانت تضم الطبقات الفقيرة تلك التي انتمى إليها معظم المسيحيين الأوائل.

ويؤكد د. سعيد عبد الفتاح عاشور<sup>(٤)</sup> أن الاضطهاد الروماني لم يكن سبب ديني بأي شكل وإنما يرجع إلى سبب اجتماعي حيث بدت المسيحية كثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادئ من شأنها تقويض دعائم المجتمع الروماني كله، فضلاً عن السبب السياسي المتمثل في ضرورة إظهار الولاء للإمبراطورية ممثلة في عبادة الإمبراطور.

لم تخرج مصر كولاية من ولايات الإمبراطورية عما جرى في ذلك العصر، فالاعتقاد الديني سرى سريعاً بين ابنائها ولاحقه في نفس الوقت الاضطهاد البشع الذي راح ضحيته الكثير من المصريين وسميت الفترة التي جرت فيها أعلى أشكال الاضطهاد (عهد دقلديانوس) بعصر الشهداء، وبدأت الكنيسة المصرية ببداية هذا العهد تقويمها السنوي (السنة القبطية).

لكن مصر تخرج من حيث كونها ولاية رومانية فقط إلى كونها استطاعت بشعبها أن تمزج بقوة بين الوطنية المصرية وبين ثقافتها التقليدية وبين اعتناقها للدين الجديد الذي جاء ليحرر البشر من العبودية، فكان الصراع الطويل الذي امتد عبر عمر الدولتين الرومانية والبيزنطية، واللتي لم تستطعا زحزحة موقف المصريين قيد أنملة من

تفهمهم لعقيدتهم، ولأء خضاعهم للهيمنة الثقافية والدينية لهاتين الدولتين<sup>(٥)</sup>.

وكما هو الحال بالنسبة لانتشار المسيحية فى العالم أو فى مصر فإن الباحثين وآسائذة التاريخ والأثار يشيرون إلى صعوبة تحديد البدايات الأولى لانتشارها فى مصر على وجه التحديد كما يشير هارولد بل<sup>(٦)</sup> إلى «أن المعلومات المتاحة عن بدء انتشار المسيحية فى مصر قاصرة جداً إلى درجة تدعو للدهشة» وأرجع ندرة الوثائق التى تشير إلى العقيدة المسيحية إلى الطابع السرى لهذا الانتشار وهو ما كانت تحتمه ظروف الاضطهاد غير أننا يمكن أن نستدل على كيفية دخول المسيحية مصر وذلك من خلال الاءضاع الاقتصادية الاجتماعية فى المدن الكبرى وتحديدأ مدينة الإسكندرية فى ذلك العصر، كما أننا لا نستطيع أن ننكر ما أقره وذكره رجال الدين المسيحيون المصريون وإثباتاتهم حول أن أول من بشر بالمسيحية فى مصر هو «القديس مرقس الرسول».

فمن حيث الاستدلال الأول ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية لحالة المدن الكبرى وخاصة مدينة الإسكندرية فإن مدينة الإسكندرية كانت سوقاً ضخماً ومدينة تجارية هائلة (بجانب دورها الثقافى) ولا شك أن ارتياد التجار والناس لها كان أمراً محتوماً، ولا يمكن أن نستثنى من ذلك تجاراً أو ناساً من فلسطين ومدن الشام الأخرى، ولا شك أيضاً أن ظهور المسيحية، وانتشارها فى هذه المنطقة كان حدثاً عميق الأثر فى

نفوس الناس هناك، ذلك أن مجريات الاحداث التي كانت تجرى في المجتمع اليهودي (السكان اليهود في فلسطين) كانت محل اهتمام السكان والمجتمعات الأخرى القريبة منهم، نظراً لدورهم في العملية الاقتصادية (الربا والوساطة) وكون أن يهوديا يخرج من بينهم يناقض أفعالهم ويدين ممارساتهم، ويشير إلى المساوية التي جرت للسيد المسيح على يد اليهود والرومان ومن قبله يوحنا المعمدان<sup>(٧)</sup>، أقول إن كل ذلك قد انتقل مع التجار والزائرين لمدينة الإسكندرية، تلك التي كان يقطن بها عدد كبير من اليهود (عدد اليهود في مصر بلغ مليون من أصل ٨ مليون مصري) والذين كانت الأغلبية منهم تتشكل من الفقراء والمعمدين - أولئك الذين عقدوا فيما بعد، وبعد أن دخلت ديانتهم العديد من البدع التي تحمل طابعاً مصرياً<sup>(٨)</sup>. ومن المحتمل أن يكون فقراء اليهود أولئك قد مالوا إلى تلك الديانة الجديدة وذلك في إطار تخلصهم من الاضطهاد الذي حاق بهم كيهود يضاف إلى ذلك طبيعة المبادئ السمحة والاخلاقية التي جاءت بها الديانة الجديدة.

بالرغم من أن سير هارولد بل<sup>(٩)</sup> ينفي أن يكون هناك شخصاً محدداً هو الذي بدأ بالدعوة إلى اعتناق المسيحية، إلا أن كثيراً من الباحثين وخاصة ممن يعملون في مجال اللاهوت المسيحي القبطي يؤكدون على أن أول من دعا إلى المسيحية في مصر كان هو القديس مرقس والذي يصفه البابا شنودة الثالث بأنه «ناظر الإله الإنجيلي»<sup>(١٠)</sup>.

ويشير هنري رياض<sup>(١١)</sup> إلى أنه يقال إن أول من بشر بالمسيحية في مصر هو «القديس مرقس» والذي حضر إلى الإسكندرية حوالى عام ٤٥ م واصفاً حال الإسكندرية باعتبارها عاصمة العالم الثقافية.

بينما يشير ليلى عبد الجواد إلى أن «القديس مرقس» قد حضر إلى مصر عام ٥٨ م، وأقام في بابليون بعض الوقت ثم غادرها إلى الإسكندرية فوصلها في عهد «نيرون» وفي عام ٦١ م بدأ يبشر فيها بديانة السيد المسيح واتخذها مقراً له.

ويتحدث عنه البابا شنودة<sup>(١٢)</sup> فيقول إنه أحد السبعين رسولاً الذين أرسلهم المسيح إلى المسكونة للدعوة إلى الدين المسيحى، كما إنه أحد الإنجيليين الأربعة الذين بشروا المسكونة كلها بأناجيلهم وأنه كرّز بشرف عدداً من البلدان - ويسرد المؤلف التواريخ التى ذكرها المؤرخون العديدون لسنة وصول «القديس مرقس» إلى الإسكندرية والتى تمتد من عام ٤٣ م إلى عام ٦١ م.

وفى كل الأحوال فقد جاء التبشير المسيحى إلى مدينة الإسكندرية حيث كانت هناك ثقافات وديانات متعددة ما بين الديانة الفرعونية (الديانة المصرية القديمة) مثل عقيدة أوزيريس الأولى وحورس آمون وأبيس حتحور، والديانة الاغريقية (زيوس، سيرابيس) والعبادة الرومانية، والديانة اليهودية؛ مما يعنى أن الديانة المسيحية الجديدة كان عليها أن تواجه كل تلك المعتقدات، وعليه، فحسب ما يقول البابا

شنوده<sup>(١٤)</sup> إن القديس مرقس ذهب إلى تأسيس مدرسة لاهوتية مسيحية تمكن الديانة الجديدة من أن تقف في وجه المدرسة الوثنية (مدرسة الإسكندرية الفلسفية الشهيرة)، وعهد بإدارة هذه المدرسة إلى «القديس يسطس السادس» والذي أصبح أسقفًا للإسكندرية فيما بعد، كما أنه يرجع إلى «القديس مرقس» وضع القديس الالهى الذى صلى به «القديس أنيانوس» بعد أن غادر «القديس مرقس» الإسكندرية فى عام ٦٢ م متوجهاً إلى الغرب ليواصل تبشيره، غير أنه عاد إلى الإسكندرية بعد استشهاد القديسين بطرس وبولس ثم استشهد هو بعد ذلك فى الإسكندرية عام ٦٨ م فى الثلاثين من برمودة، وهو الاستشهاد الذى تم فى إطار الصراع بين المسيحيين الجدد وبين أصحاب ديانة سيرابيس فى مدينة الإسكندرية.

ويسرد أسقف الأشمونين «ساويرس بن المقفع»<sup>(١٥)</sup> السيرة التفصيلية لحياة «القديس مرقس» موضحاً نسبه وحياته وانتقالاته وقرباته للقديس بطرس وإرسال الأخير له ليبشر فى الإسكندرية تم استشهاداه فى منطقة «بوكاليا» بالإسكندرية.

وما يهنا هنا من الوجة التاريخية والتي تمس المسيرة الوطنية المصرية، هو ما ذكره البابا شنوده الثالث<sup>(١٦)</sup>، حيث فند القول بأن إقامة مرقس أسقفًا من قبل بطرس الرسول، لم يكن إلا محاولة لبسط السيادة الرومانية على الكرسى الاسكندرى عندما ظهر سمو هذا الكرسى فى

المجامع المسكونية وفي القضايا اللاهوتية التي شغلت العالم المسيحي في قرونه الأولى وفي التعليم عموماً حتى لقب بابا الإسكندرية باسم «قاضي المسكونة».

ويشير «بل»<sup>(١٧)</sup> ، على الرغم من حديثه عن الغموض الذي اعترى نشأة المسيحية في مصر ، إلى أنه «لم يلبث الأمر بتلك العقيدة الجديدة حتى تسربت إلى المرفأ الرئيسي (الإسكندرية) وبمجرد وصولها هناك كان مصيرها أن تنتشر في بقية أرجاء مصر بالرغم من عدم وجود أوراق بردية ترجع إلى القرن الأول، لكن في القرن الثاني وجدت آثار ضئيلة لهذه الديانة (مما يدعو للاستغراب) غير أنه يذكر بعد ذلك مباشرة «أنها كانت موطدة الدعائم (أي الديانة الجديدة) في مصر الوسطى والعليا مستدلاً على ذلك بأوراق بردى تحوى موضوعات أدبية أرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادى بالإضافة إلى قطعة صغيرة من أوراق البردى تحوى جزءاً من إنجيل القديس يوحنا يقول إن آراء الثقة المختصين قد أجمعت على أنها من العهد الأول لهذا العصر» وهكذا نجد أنه خلال القرن الأول والثاني الميلادى حدث انتشار كبير للمسيحية في مصر سواء في مدينة الإسكندرية أو في جنوب مصر ابتداء من مصر الوسطى إلى العليا.

هذا الانتشار يعزوه د. حسين فوزى<sup>(١٨)</sup> إلى مجمل الاوضاع التي أحدثها الحكم الرومانى في مصر والأجنبى عموماً مشيراً إلى أن الشعب

المصرى كان أشد الشعوب بؤساً تحت حكم الرومان حيث عرف أشكالا أنكى من الاستغلال الاقتصادى وهى القهر الذى مارسه ضده الرومان فكان مجتمعا يجيء بعد الرومانى واليونانى واليهودى وكل اجنبى فى بلاده ويشير إلى أن بعض هؤلاء الاجانب كان لهم الحق فى الرعية (المواطنة) الا المصرى الذى لم يكن له حقوق غير حق الذل وإنتاج الغذاء والكساء وزخرف الحياة للغالبيين» .

ويضيف د. حسين فورى إلى هذه الأسباب شيئا على قدر كبير من الأهمية ألا وهو التدهور الدينى الذى لحق بالديانة المصرية القديمة - والتى كانت تشكل لب الثقافة المصرية عبر تاريخها القديم كله - وذلك على أيدي الكهنة مشيراً إلى أن «المصرى القديم قد روع، على مدى السنين الممتدة من عصر احتلال الاغريق بقيادة الاسكندر لمصر وحتى الاحتلال الرومانى ووقائعه الدامية، بمظاهر الزيف والفساد فى ديانته نتيجة الحكم الاجنبى. لقد هاله الغش والتدليس الذى جرى لديانته، ولم ير فى سلوك كهنته إلا ممالأة ومداهنة للمحتل، ورغم ذلك فقد بقى للمصريين ثالوثهم الاوزيرى وطقوسه وصارت هذه العقيدة عندهم القدر المعلى «لعلمهم رأوا فى قصة ايزيس روح بلادهم نحاول أن تجمع أشلاء قوميتهم من تحت أقدام الغاصبين القتل» ويرى د. حسين فوزى أن كل الاسباب (اجتماعية واقتصادية وسياسية) مجتمعة قد أفضت إلى اعتناق المصريين للمسيحية وأن ابرز هذه الاسباب كانت رغبتهم فى مناداة حكامهم الاجانب الدين لم يحتلوا وطنهم فحسب، بل الذين

أفتحموهم عليهم ديانتهم أيضاً .... لقد تحول المصري إلى المسيحية تلك العبادة الجديدة حيث وجدت في نفسه المتدينة مكانها.

وتحدد د. ليلي عبد الجواد إسماعيل<sup>(١٩)</sup> أسباب انتشار المسيحية في مصر وزيادة عدد معتنفيها إلى أن ما كانت تتميز به هذه الديانة من سمو المبادئ التي كانت تدعو إليها والتي تمحورت حول المحبة والمساواة والإخاء والعدالة، وتشارك د. حسين فوزي الرأي في أن الفراغ الروحي الذي نجم عن تدهور الديانة المصرية كان من الأسباب الرئيسية أيضاً، غير أنها تضيف سببا آخر هو أن الديانة اليهودية لم تنتشر عند سائر فئات الشعب المصري، وأن المسيحية جاءت بمبادئ أكثر رحابة وإنسانية وتبشر بالمحبة بين الناس بينما كانت القومية سمة للديانة اليهودية وفقاً لرؤية أبحارها العبرانيين، الذين وصفوا أنفسهم بأنهم شعب الله المختار ومن ثم كانت ديانتهم مغلقة.

وحقيقة لقد أدى وضع اليهود واليهودية، وفقاً لما صاغه لها أبحارها، إلى اعتبار ديانتهم ديانة مغلقة، وارتكازا إلى اعتبارهم أنفسهم شعب الله المختار، وهو الأمر الذي يشير إلى أن حالة اليهود كفتة أو طائفة أو جماعة من السكان في مصر في ذلك الوقت، كانت تضع ذلك المرتكز في موقف اختبار فعلي، فقد تميزت جماعة اليهود في مصر باتساع عددها (مليون من أصل ثمانية مليون مصري) وانتشارها ليس فقط في الإسكندرية وإنما في معظم بلدان مصر آنذاك خاصة الوجه



القبلى، وبينما كان أغنياؤهم يعيشون حياة منعمة بفضل نشاطهم الاقتصادى فإن اغلبيه واسعة منهم كانت مستقلة اقتصاديا ومقهورة اجتماعياً وذلك بسبب منافسة الاغريق لهم فى مجال التجارة والاقتصاد، فضلا عن طبيعة الحكم الرومانى الذى اعتمد أساساً على نزح الثروات من مصر كلها، ويؤكد أحمد صادق سعد<sup>(٢٠)</sup> صحة هذه الرؤية مشيراً إلى أن الصراعات بين الاغريق واليهود قد راحت ضحيتها الطبقات الدنيا من اليهود، بينما نجا منها كبارهم بإعلان ولائهم للحكومة الرومانية، ويشير أيضاً إلى «ما يسميه» بالثورة اليهودية الكبرى والتي اندلعت فى الفترة ما بين أعوام ١١٥-١١٧ م امتدت أحداثها فى الريف المصرى من سوهاج وطيبة جنوباً إلى «اتريب» بنها حالياً شمالاً وإلى «بلدزيوم» مدن القناة حالياً، شرقاً، وأنهم قد استطاعوا أن يهزموا الرومان فى الأشمونين، ويشير أيضاً إلى أن بعضاً من المصريين من الفلاحين والهاربين من القانون فى المستنقعات الشمالية قد عضدوها.

معنى ذلك أن اليهود، وتحديدًا الفقراء منهم، كانوا أحد الجسور القوية لانتشار المسيحية فى مصر فأولئك الفقراء الذين عانوا الأمرين من الصراعات بين طائفتهم وبين الاغريق والذين أصيروا من القوانين والضرائب الرومانية وجدوا أيضاً فى الدين الجديد أساساً للنضال ضد الرومان، فضلاً عن أن المثل والمبادئ السامية التى احتواها هذا الدين الجديد، قد تكون مخلصاً لهم من عزلتهم ومن اضطهادهم فى آن واحد،

فانتقل العديد منهم إلى هذا الدين الجديد وعلى رأسهم بالطبع أينانوس. لقد ساعد هذا الدين الجديد أولئك اليهود (السابقين) على أن يحلوا مشكلاتهم كيهود مضطهدين بأن تخلوا عن يهوديتهم، خاصة الفقراء منهم، أولئك الذين تمصروا قبل ذلك كنتيجة مترتبة على كونهم فقراء وكادحين (فلاحون، عمال، عبيد معتوقون، وصغار تجار) فذابوا في الشعب المصرى يعانون معاناته، ويطالبون بمطالبه ويثورون ثوراته. ويجمع الباحثون على أن أكثر ما ساعد على انتشار المسيحية في مصر أن كثيراً من معتقدات هذا الدين الجديد كانت لها أشباه في الديانة المصرية القديمة من حيث فكرة الثواب والعقاب، والبعث والخلود، فضلاً عن فكرة الثالوث المقدس التي تضمنتها عقيدة أوزوريس، وتضمنتها أيضاً الديانات الرسمية القديمة في مصر يضاف إلى ذلك كله العمداء بالماء المقدس، والتشابه بين الصليب رمز الحياة الروحية في المسيحية وبين «عنخ» الصليب ذى الحلقة عند قدماء المصريين والمعروف باسم «مفتاح الحياة» على أن أبرز ما دعا إلى اعتناق المسيحية في مصر هو التقدير البالغ من جموع الفقراء من أن الله لم يرض عما يلاقيه البشر البسطاء فبعث من روحه من يقيم الحق فافتداهم. ويشير تشيرنى في إطار حديثه عن أسباب انتشار المسيحية في مصر ومدى تأثير الديانة المصرية القديمة على المسيحية، فيما يتعلق بأسباب الانتشار فإن رفض الاعتراف أو الإقرار بأن الإمبراطور كان إلهاً أو الخضوع لديانة الدولة قد عززه بشكل رئيسى عاملان

أساسياً هما أن الفكرة النابتة في عقول المسيحيين الأوائل كانت هي قرب القدوم الموعود لملكوت الله ومن ثم فإنهم كانوا ينظرون إلى النظام الامبراطوري والاحتلال الروماني باعتبارها أمراً مؤقتاً والعامل الثانى والذي عزز أيضاً العامل الأول، هو نظام الضرائب القاسى الذى فرضه الرومان ومن قبلهم البطالمة، والذي تنافى مع أى قواعد عادلة، مما مزج بقوة بين العوامل الروحية والمادية لانتشار المسيحية.

أما فيما يتعلق بتأثير الديانة المصرية القديمة على المسيحية فهو بذلك يعزز الفكرة التى تقول بأن المسيحية كانت عاملاً قوياً فى استنهاض الروح القومية المصرية، حيث يؤكد أن الديانة المصرية القديمة كان لها نصيبها من تشكيل الخلفية الحضارية العامة والتربة الخصبة التى ارتفعت فيها المسيحية وانتشرت حيث أن المفاهيم والمتطلبات التى فرضتها المسيحية على أتباعها تكاد تتماثل مع الديانات والأفكار الفلسفية المعاصرة لها، فالسلوك الطيب كان لا غنى عنه للحاق بملكوت الله (نفس الأسس الفكرية للعقيدة الأوزيرية)، كذلك كانت هناك متشابهات كثيرة حول السيدة العذراء وهى تحمل المسيح بما يماثل إلى حد كبير ايزيس وهى تحمل حورس كذلك هناك صورة الفديس جورج (مارجرس) وهو يقتل التنين برمحه متشابهاً فى تطابق مع صورة حورس وهو يطعن عدوه الشرير «ست» فى هيئة التمساح.

وفى نهاية الحديث عن الاسباب التى أدت إلى انتشار المسيحية فى مصر، وبروز وظهور الكنيسة المصرية وموقفها الوطنى لا نجد تعبيراً جامعاً ومحدداً مثلما حدده تقرير الحالة الدينية فى مصر ١٩٩٥<sup>(٢١)</sup> حيث يذكر أنه بسبب الحكم الرومانى الغاشم لمصر، فقد وجد الملايين من المصريين المضطهدين فى المسيحية، ضالّتهم فى الكنيسة التى تأسست، حيث كانت المدافع عنهم. ولقد أدى تحول المصريين إلى المسيحية بشكل جماعى إلى أن تتكون جماعة مسيحية ممتدة وضخمة ومنظمة، كانت هى الإرهاصة الأولى فى تأسيس «الكنيسة القبطية» أقدم وأعرق مؤسسة مسيحية فى مصر، ومنذ بداية تأسيس الكنيسة القبطية المصرية، حدث التصادق بين الموقف الدينى والنزعة القومية واحتضنت الكنيسة كلا من الأرضى والشعب».

#### الاضطهاد الرومانى.. هل كان دينياً أم قومياً؟

يجمع كافة الباحثين فى تاريخ تلك الفترة بدءاً من القرن الأول الميلادى وحتى نهايات القرن الثالث أن الاضطهاد الرومانى للمسيحيين لم يكن مبعثه دينياً أى أنه لم يوجه للمسيحية كديانة، حيث اشتهر الرومان بتسامحهم الدينى تجاه مختلف الديانات والعقائد الموجودة داخل الامبراطورية، إلا إذا كانت هذه العقيدة أو تلك تتنافى مع المبادئ الاخلاقية أو تتعارض مع السياسة العامة، أى أن أمر الحظر كان يستند إلى أحوال دنيوية خالصة وعلى رأسها بالطبع مصالح الإمبراطورية الرومانية<sup>(٢٢)</sup>.

ويمكن هنا أن نحدد أكثر أن أسباب الاضطهاد الرومانى للمسيحيين عموماً وفي مصر على وجه التحديد يرجع إلى أسباب سياسية واجتماعية محضنة، ذلك أن رفض ممارسة الشعائر الدينية الرسمية للدولة (عبادة الإمبراطور) إنما كانت تعنى رفضاً لرمز من رموز قوة وهيمنة وسيطرة الدولة على رعاياها هذا أولاً. يضاف إلى ذلك أن الرومان اعتبروا اعتزال المسيحيين للحياة العامة السائدة فى ذلك الوقت إنما يعنى هروب المسيحيين من أداء الواجبات المدنية الخاصة بالدولة مما يعنى العمل على إضعافها، ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين خارجين عن النظام العام للمجتمع وعن الحياة الرومانية وتقاليدها ومن ثم فهم يشكلون خطراً على الدولة الرومانية، هذا ثانياً. أما ثالث الأسباب فهو رفض المسيحيين تولى المناصب العامة فى الدولة، ورفض أداء العمل العسكرى والخدمة العسكرية دفاعاً عن الدولة<sup>(٢٤)</sup>. ويعدد الأنبا يوانس<sup>(٢٥)</sup> (أسقف الغربية فى عام ١٩٨١) أسباب الاضطهاد الرومانى للمسيحيين، فيذكر إلى جانب طبيعة الدين الجديد فى تأثيره على الناس من حيث ربطه بين الشعائر الدينية وأعمال الإيمان مما يعنى رفضاً قاطعاً للديانات الوثنية ومنها الديانة الرسمية للدولة الرومانية ومن حيث عدم توريث المناصب الدينية (سلك الكهنوت)، وعدم سرية التعاليم المسيحية، يذكر أيضاً أن الديانة المسيحية كانت منذ بدايتها ديانة مسكونية أى عالمية بمعنى تساوى البشر أمام الله وهو ما يتعارض مع التقسيم الطبقي والعرقى والدينى

الذى وضعه الرومان (الاحوال الاجتماعية فى الدولة الرومانية) ثم يشير إلى سبب هام آخر وهو أن المسيحية فى جانب من جوانبها قد عملت على فصل الدين عن الدولة الرومانية، حيث لم تعترف فى تنظيمها الكنسى بوظيفة الكاهن الأعلى، أو تقبل بأن تعين الدولة رئيس كنيستها مثلما كانت تفعل مع الديانات الوثنية الأخرى، وأنها فرقت بين طاعة الله وطاعة القيصر اتباعاً لقول السيد المسيح «اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر» ومن ثم ظهر الرفض للانخراط فى الجيش الإمبراطورى، ورفض تولى الوظائف العامة ورفض العمل فى بعض المهن.

وعندما ننظر إلى تلك الاسباب التى أدت إلى الاضطهاد نجدها كلها تتمحور حول الحفاظ على الإمبراطورية الرومانية متعددة الشعوب، مترامية الأطراف، وحين نضيف إلى ذلك أوضاع الإمبراطورية الرومانية والصراعات التى قامت بين حكامها وبين شعوبها، وتوانر الاصلاحات التى لم تكن تعنى إلا محاولات لإحكام السيطرة على تلك الاملاك الشاسعة، وبالنظر إلى وضع مصر باعتبارها البلاد الحاكم فى المنطقة من الناحية الاستراتيجية (راجع أسباب احتلال الاسكندر لمصر ودخول عمرو بن العاص إليها).

وبالنظر كذلك لحالة الشعب المصرى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية (الضرائب/ كان وضع المصريين أسفل سلم المجتمع)

وبالنظر كذلك إلى الحالة الدينية وما أدى إليه سلوك الكهنة، وعلى اعتبار أن الدين كان جزءاً ثقافياً جوهرياً في ثقافة المصريين، فإن استرداد اليقين بصحة ما آمنوا به مسبقاً (العقيدة الاوزيرية) فإن هذا الدين الجدد قد اشعل فيهم تلك الروح القومية الخالدة بما اشتمل عليه من مشابهاة، وفيما دعا إليه من عدل ومساواة وإخاء، وفيما دعا إليه من نفى العبودية والقهر والاستغلال، وجعل الجميع أمام الله العلى القدير الرحيم سواسية يحاسبون وفقاً لأعمالهم الدنيوية ومدى تطهرهم من الدنس وبعدهم عن الشر والرذيلة.

### حلاقات الاضطهاد الرومانى:

تتابعت حلقات الاضطهاد الرومانى ضد المسيحيين بشكل عام منذ أن تولى حكم الإمبراطورية (نيرون - ٥٤ - ٨٠م) وإن كانت أحداث اضطهاداته لم تصل إلى مصرفد أحرق روما (فقط) غير أنه وفي عهده تم استشهاد القديس مرفص فى الإسكندرية على يد بعض الوثنيين.

ويصف الانبياؤانس<sup>(٣٦)</sup> اضطهاد نيرون للمسيحيين بأنه لم يكن اضطهاداً دينياً خالصاً وإن ألحق حريق روما بهم بعد أن اتهمهم بكراهية الجنس البشرى، وفى عهده أيضاً استشهاد القديسان الرسولان بطرس وبولس.

وفى إطار محاولات درء الخطر عن الدولة الرومانية اعتبر دومتيان (٨١-٩٦م) اعتناق المسيحية جريمة ضد الدولة للأسباب التى أوضحناها سالفًا وحكم على الكثير من المسيحيين بالموت.

وفى عهد تراچان (٩٨-١١٧) وفيما يتعلق بمصر فقد شغلته ثورات اليهود، إلا أنه أعلن تحريم الديانة المسيحية وأحيا التشريعات الصارمة ضد جميع الهيئات والجماعات السرية وهو ما يعنى اعتبار اجتماعات المسيحيين الدينية من هذا النوع وقد استمرت فعالية هذه التشريعات من بعده لأكثر من قرن من الزمان ويشير الأنبايوانس إلى أن اضطهادات تراچان قد طالت بعض مسيحي مصر. وفى الفترة من عام ١٦١ وحتى ١٨٠م تولى مرقس أوريليوس والذى يمثل عهده بداية انهيار الإمبراطورية الرومانية على يد كل من الجرمان والفرس من الخارج والفساد فى الداخل، وفى عصره قامت فى مصر ثورة الكاهن أيدوروس عام ١٧٢م فى شمال الدلتا (ثورة الرعاة) وفى غضون حكم هذا الإمبراطور أرسل مرسوما يهدد بنفى كل من يحاول تعليم الناس الخوف من الله وكان ينظر كمثقف رواقى إلى المسيحية باعتبارها خرافة سخيفة ومتعصبة.

وببدأ عصر الاضطهاد الحقيقى للمسيحيين فى مصر منذ عهد الإمبراطور «سبتيميوس سيفيروس» (Seprimus Severus ١٩٨-٢١١م) والذى دفعه العسكريون الرومان إلى عرش الإمبراطورية بعد



صراع عنيف على تولى العرش. ويشير الأنبا يوانس إلى أن إكليمنضس السكندري وصف حالة المسيحيين المصريين في تلك الفترة بقوله «كثير من الشهداء يحرقون يومياً أو يعدمون على مشهد منا»، وقد أصدر سيفروس في عام ٢٠٢ م مرسوماً يقضى بمنع المسيحيين من تبشير غيرهم وضم منتصرين جدد، وقد شملت تلك الاضطهادات مصر وشمال أفريقيا ومن أبرز شهداء تلك الفترة ليونيدس والد العلامة اوريجانوس Origene وبوطامينا العذراء العفيفة وباسيليديس الجندي.

وفي عهد الإمبراطور (ديكيوس ٢٤٩-٢٥١ م) والذي سبقته أيضاً صراعات طويلة على عرش الإمبراطورية جرى الاضطهاد واضحاً ضد المسيحيين ووصل الأمر إلى أن صدر أول قرار إمبراطوري ضد الديانة المسيحية نفسها عرف باسم «مرسوم التحريم» ولم يكن هذا القرار دينياً بالرغم من منطوقه فقد كان سياسياً من حيث الهدف والمضمون، ذلك أن قوة المسيحيين قد ظهرت في أجزاء عديدة من الإمبراطورية ومنها مصر وأصبحت هناك كنيسة (مؤسسة دينية) ذات هيئة منظمة وغدا لها أتباعها من بين كل طبقات المجتمع في جميع أنحاء الإمبراطورية.

تضمن مرسوم التحريم... تحريم القول بالنصرانية، وحتم على المواطنين حمل شهادة تتضمن الإشارة إلى أن حاملها قام بتقديم القرايين للآلهة ومن بينها الإمبراطور بطبيعة الحال، وفي سبيل تنفيذ

هذا المرسوم استخدم حكام الأقاليم كل ألوان العنف والاضطهاد والقسوة لحمل المسيحيين على الارتداد عن دينهم، ووضع من قاوم ورفض تنفيذ إجراءات هذا المرسوم في السجن دون ماء أو طعام حتى يرتد عن دينة، وأمام هذه القسوة وذلك الفساد المنتشر في الإمبراطورية فقد استشهد الكثيرون، وحصل البعض على شهادة تبرئة من المسيحية عن طريق الرشوة، واضطر الآخرون إلى تقديم الفرائين<sup>(٢٩)</sup>: ولقد شمل هذا الاضطهاد الإمبراطورية كلها واستشهد فيها اسقف روما وأسقف أورشليم وأسقف إنطاكية وأسقف الإسكندرية.

وبرغم كل هذا الاضطهاد فقد أتى بنتائج عكسية تماما، فقد جذبت بطولة الشهداء الكثير من الوثنيين، كما بدأت حركة الرهبنة متواكبة مع تلك الفترة في مصر حيث هرب المسيحيون إلى الصحراء والجهات النائية وفي الفترة من عام ٢٥١ وحتى عام ٢٦٠ م خلال عهود الاباطرة ثريبيونيانوس وفابريانوس وجالينوس (٢٥٣-٢٦٨) توقفت لفترة مؤقتة سياسة اضطهاد المسيحيين حيث أصدر الإمبراطور جالينوس مرسوماً في عام ٢٦١ م بالتسامح الديني مع أصحاب الديانات الأخرى وسمح للمسيحيين بالعبادة دون التعرض للوثنيين في أماكن عبادتهم أمر برد الاملاك المصادرة من المسيحيين ، واعادة بناء الكنائس، والسماح للمسيحيين بتولى الوظائف العليا في الولايات وفي البلاط الامبراطوري<sup>(٣٠)</sup> كما اتاحت تلك الفترة بهدوئها وسلامها الفرصة للكنيسة لكي تستكمل بناءها وتنظيمها.

وفيمما يتعلق بمصر فمنذ بداية النصف الثانى من القرن الثالث فقد بدأت ظواهر متعددة تلعب دورها كان منها ازدياد عدد المسيحيين فى مصر ازدياداً كبيراً، ولأول مرة بدأت تظهر محاولات الاستقلال عن روما.

ذلك أنه رغم الاضطهاد ومنذ بداية القرن الثالث فقد أصبحت الإسكندرية مركزاً لحركة مسيحية قوية بعد أن ترسخت كنيستها بازدياد اتباعها فاستطاعت أن تقوم بدور الوسيط بين المسيحية المنتشرة فى جميع أنحاء مصر من جهة وبين المسيحية العالمية من جهة أخرى<sup>(٣١)</sup> ولقد وصل الأمر إلى حد مخاطبة أسقف الإسكندرية بلفظ «ابا الإسكندرية» وهذا اللفظ حملة لأول مرة فى التاريخ «هرقل» أسقف الإسكندرية (٢٣٢-٢٦٤ م).

فى نفس الوقت أدت الصراعات فى الامبراطورية إلى انشقاق أحد القادة العسكريين (ماركيانوس) وتولية ابنه عرش إمبراطورية الشرق مما أدى إلى أن يعلن نفسه إمبراطوراً إلى أن قام أحد القادة العسكريين الرومان (يغودسيوس) بإعادة مصر إلى الامبراطورية وتشيرد. أمال الروبى<sup>(٣٢)</sup> نفلا عن د. مصطفى العبادى، إلى أن شعب مصر قد تمسك بهذا الانفصال الذى قام به والى مصر إلى الدرجة التى راح فيها ضحية لهذه الاحداث ثلثا سكان الإسكندرية وتدل الفقرات السابقة على أن تبلوراً قومياً ووطنياً قد حدث فى تلك الفترة ساعدت عليه بدون شك الهيئة المسيحية المنظمة - كنيسة الإسكندرية - ومسيحيو مصر آنذاك.

## الإضطهاد في زمن دقلديانوس (Diocletian 284-305م)

دفع العسكريون الرومان بدقلديانوس إلى عرش الإمبراطورية جاء دليلاً على مدى التدهور الحادث في أحوال الإمبراطورية الرومانية، وبالرغم مما يسميه العديد من المؤرخين بإصلاحات دقلديانوس إلا انها كانت اجراءات تبغى وتحاول ضمان وحدة الإمبراطورية، غير أنها ورغم كل شيء قد ذهبت عبثاً، فقد انقسمت الامبراطورية بعد هذه الاصلاحات بحوالى مائة عام وسبققتها تداعيات نفل العاصمة وغيرها من التقسيمات الإدارية العسكرية التى كانت فى الواقع بمثابة التجهيز لهذا الانقسام المحتوم. فى الحقيقة فإن اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين لم يكن جزءاً أو عملاً منبث الصلة بالإصلاحات لقد أراد أن يسحق هذا التنظيم (الكنيسة) الذى أنشأه المؤمنون بهذا الدين الجديد والذين ابتغوا منه الحماية وسيادة المبادئ السامية التى جاءت بها المسيحية (بغض النظر عن أفعال الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى وحتى بدايات العصر الحديث).

ولعل هذا الفهم الذى نرى به أحداث تلك الفترة هو الذى يدفعنا إلى نفى فكرة أن النزاع العقائدى الذى بدأ ينشأ بين الفرق المسيحية فى أنحاء الامبراطورية كان هو السبب فى بداية الاضطهاد. لقد كان الأمر فى حقيقته استئصال لعنصر القوة الفعال لهذه الجموع المتدينة (الكنيسة) وإبعاد الجموع عنها وذلك من خلال الاضطهاد البشع الذى جرى فى تلك الفترة.

ونستطيع أن نركن إلى أسباب أخرى منها أن قلب الإمبراطورية ويدها الطولى متمثلة في الجيش الرومانى، الذى اعتنق كثيرون من أفراد المسيحية وامتنعوا عن ممارسة أخص الطقوس الرومانية ألا وهى عبادة الامبراطور، لهو دليل الوفاء للإمبراطورية والانتماء لها، يضاف إلى هذا السبب أن المسيحيين قد تولوا كثيراً من المناصب العامة والعليا فى الإمبراطورية، وأنهم مع قوة كنيستهم وإيمانهم ومعتقداتهم التى تنفى أحقية وجود معتقدات الغير الأمر الذى سوف يفضى إلى صراع خطير فى الامبراطورية التى يبغى دقلديانوس ونائبه جاليريوس إقالتها من عثراتها ووقف تدهورها.

ولعل قراءة مراسيم دقلديانوس الأربعة والخاصة بالمسيحية والمسيحيين تشير إلى صحة ما أوردناه فقد أمر المرسوم الأول بتدمير الكنائس وإحراق الاناجيل والكتب المقدسة، ومصادرة أملاك الكنائس وحرمان الاشراف المسيحيين من التمتع بامتيازات طبقة الاشراف واعتبار المسيحيين جميعاً خارجين على القانون.

كما أمر المرسوم الثانى بالقبض على كافة رجال الإكليروس بمختلف طبقاتهم ونص الثالث على ألا يفرج عنهم إلا بعد أن يقدموا القرابين للآلهة وخاصة إله الدولة (الإمبراطور) وقد صدرت كل هذه المراسيم فى عام ٣٠٣ م. وفى عام ٣٠٤ م صدر المرسوم الرابع الذى يقضى بالزام كل فرد فى الدولة بتقديم الأضحيات والقرابين للآلهة وتعذيب كل من يتمسك بالمسيحية<sup>(٣٣)</sup>.

وفى مصر تحديداً فإن مراسيم الاضطهاد قد تولى تطبيقها مكسيمينوس داز الذى حكم مصر وسوريا ويصفه الانبا يؤانس<sup>(٣٤)</sup> بأنه أشد الحكام الذين نكلوا بالمسيحيين ويوضح لنا ساويرس بن المقفع<sup>(٣٥)</sup> كيفية استشهاد البطريك بطرس الأول البطريك السابع عشر لكنيسة الإسكندرية والذى قطعت رأسه فى التاسع والعشرين من هاتور عام ٢٧ من التقويم القبطى أى عام ٣١١ م فى عهد والى مكسيمينوس داز والامبراطور جالوريوس نائب دقلديانوس وخليفته بعد أن شهد استشهاد أكثر من ستمائة وستين من المصريين المسيحيين .

ووفقا لكتاب ساويرس بن المقفع<sup>(٣٦)</sup> فإنه منذ عهد البطريك ديمتريوس بدأ موكب الشهداء المصريين يلحق بروح القديس مرقس .

لقد شهدت مصر عهداً مكثفاً من القتل والتعذيب راح ضحيته آلاف من الشهداء وآلاف من الذين هربوا من هذا الاضطهاد وذهبوا إلى الصحراء ليتعبدوا ويؤسسوا حركة الرهبنة والديرية الأولى فى العالم . ويقرر القس منسى يوحنا<sup>(٣٧)</sup> فى كتابه «المؤمنين» تاريخ الكنيسة القبطية أن الذين قطعت اعناقهم فى اضطهاد دقلديانوس فقط فى عام ٣٠٣ م لأجل اقرارهم بالمسيح كان نحو ١٤٠٠٠٠ (مائة وأربعون ألفاً) من النفوس فضلا عن ٧٠٠٠٠٠ (سبعمائة ألف) هلكوا بالحبس والنفى، ويضيف أن بعض المؤرخين يقولون إن عدد الشهداء حينئذ بلغ ١٤٠٠٠٠ (مائة وأربعون ألفاً) ويبدو أنه مجموع شهداء اضطهادات

الملوك الثلاثة (دقلديانوس وجاليريوس ومكسيميان دازا)، (ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الأقباط يتناقص من عشرين مليوناً إلى عشرة ملايين).

ورغم كل ما جرى من قتل وتعذيب ونفى فإن نتائج الاضطهاد لم تفلح، لأن استعادة الإمبراطورية لقوتها أو تحقيق استقرارها، لا فى صرف المصريين عن انتمائهم القومى، ولا عن انتمائهم الدينى الجديد، الذى رأى فيه استرداداً للطريق القويم الذى سلكوه منذ القدم (ذلك الطريق الذى يعنى أن الدنيا معبر إلى الخلود فى النعيم أو الخلود فى الجحيم وفقاً للأفعال والأعمال التى يؤديها الإنسان).

ولم يكن الدين الجديد على هذا النمو وفى تلك الظروف سوى زاد، جديد للوطنية المصرية التى لم تتركها سنة ولا نوم فى أى وقت من تاريخها الطويل<sup>(٣٨)</sup>.

وتعدد د. ليلى عبد الجواد<sup>(٣٩)</sup> نتائج هذا الاضطهاد فتشير إلى استشهاد عدد كبير من المسيحيين المصريين، غير أن الموقف الذى اتخذته الكنيسة المصرية (المؤسسة الدينية/ الوطنية الحامية) باعتبار السنة التى بدء بها عهد حكم دقلديانوس والذى جرت فيه دماء الشهداء هو بداية لتقويم جديد - يعتمد على الشهور المصرية القديمة - هو التقويم القبطى، إنما يشير دون شك إلى المزيد من التبلور للوطنية المصرية فى مواجهة الاحتلال والحكم الرومانيين، تأتى ثانياً هذه

النتائج متمثلة فى الازدياد الهائل لأعداد المسيحيين المصريين بعد أن شكلت لهم بطولات الشهداء وتعاونهم ضد وحشية الرومان مثلاً بارزاً يحنذى، وأوضحت لهم طبيعة المبادئ والمثل العليا التى يتضمنها هذا الدين الجديد.

يضاف إلى ذلك نتيجة ثالثة وهى انتشار المسيحية فى الأماكن النائية، وبروز فيلق جديد من المصريين يمثل الرهبان، وهم الذين حموا الاعتقاد الارثوذكسى للمسيحية فيما بعد.

وأضيف أيضاً إلى تلك النتائج أن فترة الاضطهاد هذه قد قوت إلى حد بعيد الروح الوطنية المصرية، وتبدياتها الفكرية والنظرية، فهى قد حسمت قبل الطرح العلنى الواسع قضية الإريوسية والإثناسيوسية ولعل فى سيرة البطريرك الشهيد بطرس الأول ما يشير إلى ذلك<sup>(٤٠)</sup>.

ثم تأتى النتائج بأهمها على الاطلاق ألا وهى الاعتراف الضمنى بالمسيحية بإصدار مرسوم التسامح فى إبريل عام ٣١١م والذى أصدره جاليريوس والذى كان يعد أعدى أعداء المسيحيين ثم تلاه المرسوم الذى أصدره قسطنطين عام ٣١٣م بالاعتراف النهائى بالمسيحية كإحدى ديانات الدولة الرسمية والرهبنة المصرية ودورها.

### الرهبنة والديرية:

ارتبط انتشار المسيحية فى مصر والاضطهادات التى تعرض لها المصريون المسيحيون بحركة الرهبنة والديرية، والحقيقة أن حركة



الرهبنة هذه قد أثرت تأثيرا عميقا في الإيمان المسيحي للمصريين وساعدت إلى حد كبير في صبغ المسيحية المصرية بسماتها القومية المصرية.

يصف «سيرهارولد بل» حركة الرهبنة والديرية بأنها كانت «أهم معونة قدمتها مصر إلى تطور المسيحية وتقدمها». ويرجع «بل» نظام الرهبنة المصرية إلى أصول الديانة المصرية القديمة، وأن الرهبنة والنسك في العصور المصرية القديمة لم تكن تدل على الجبن والهرب والفرار بقدر ما كانت تدل على الشجاعة والإقدام والتجرد، فالمصريون القدماء الذين تنسكوا في الصحراء كانوا يذهبون إليها باعتبارهم مقاتلين للشيطان والارواح الشريرة التي كان ملاذها ووجودها في تلك الصحراء والتي كانت في الوقت نفسه منطقة نفوذ الإله «ست» إله الشر في الاسطورة الاوزيريه<sup>(٤٢)</sup>.

وترجع د. ليلي إسماعيل والعديد من الباحثين كذلك فكرة العزلة والانقطاع والرهبنة والتنسك إلى العبادات الوثنية التي كانت قائمة قبل اعتناق المصريين للمسيحية، فتردها إلى عبادة سيرابيس اليوناني وإلى البدايات الأولى للمسيحية، بل إلى أصول المسيحية الأولى. ويصفها د. حسين فوزي<sup>(٤٣)</sup> بأنها كانت أعجب صور المقاومة المصرية للاحتلال الاجنبي، وإنها كانت عظيمة الأثر في تاريخ المسيحية وشيجة بينها وبين حركات العصيان المدني والمقاومة السلبية في العصر الحديث

ورغم أن كافة الباحثين يرجعون حركة الرهينة والتنسك المسيحي إلى بداية دخول المسيحية إلى مصر مرجعين تعاليمها إلى القديس مرقس، وأقوال القديس بولس، إلا أن حركة الرهينة المسيحية في مصر لم تبدأ بشكلها المعروف إلا منذ القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي على يد كل من فرنتونيوس في عصر الإمبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨-١٦٢م) ثم الأنبا بولا عام (٢٥٠م) والأنبا أنطونيوس عام (٢٨٥م) في القرن الثالث الميلادي<sup>(٤٤)</sup> وارتبطت حركة الرهينة وانتشارها الواسع بالاضطهاد الديني الذي بلغ ذروته في عصر دقلديانوس.

ومنذ عهد القديس باخوم (٢٩١-٣٤٦) في القرن الرابع الميلادي، مؤسس نظام الشراكة، اتسعت حركة الرهينة والديرية حيث أسس أول دير عرفته المسيحية قرب منطقة دندرة القريبة من طيبة في الفترة من (٣١٥-٣٢٠) ثم بنى أديرة متعددة بلغت تسعة للرجال واثنين للنساء. تشير د. ليلي عبد الجواد إسماعيل<sup>(٤٥)</sup> إلى طبيعة الحياة المنظمة داخل الأديرة حيث تصف تنظيمات القديس باخوم الديرية بأنها شبه عسكرية وأن نظامه الديرى قد ربط بين العمل والعبادة والثقافة والعلم حيث استطاع أن يقضى على الأمية في أديرته قضاءً مبرماً.

ويصف د. طاهر عبد الحكيم<sup>(٤٦)</sup> الرهبان بأنهم كانوا أشبه بالتنظيم السياسى الجماهيرى، والمليشيا المسلحة لهذه (الكنيسة/الدولة)، ويستند

فى هذا الرأى إلى الدور الذى لعبه الرهبان عندما ذهبوا مع البطارقة (كيرلس وديسפורس) إلى مجمع خلقيدونية، كذلك موقفهم من يهود الإسكندرية فضلاً عن تشكيله لجنة قومية دينية انتخبت بطريركا مصريا أرثوذكسيا خلفا للبطريرك ديسפורس الذى أجبر على عدم العودة إلى الإسكندرية والبقاء فى المنفى.

والجدير بالذكر أن المصدر السابق نفسه يشير إلى أن الرهينة تحولت إلى حركة جماهيرية دخل فيها الفلاحون أفواجاً وبلغ عددهم مائة ألف راهب وفقاً لما ذكره صبحى وحيد وأنها كانوا يشكلون جيشاً عنيفاً جسوراً استطاع أن يقود الفلاحين فى تمرداتهم. ويشاركه فى هذا الرأى د. حسين فوزى<sup>(٤٧)</sup> وأحمد صادق.

لقد وصف ماسبيرو الرهبان المصريين وفقاً لأيريس حبيب المصرى<sup>(٤٨)</sup> بأنهم على درجة عظيمة من البسالة لأنهم كانوا مصريين صميمين لم يختلطوا بالأجانب وتشير نفس الكاتبة إلى ما وصفهم به دوشين أحد المؤرخين الفرنسيين بأن الرهبان لكونهم المدافعين الملتهمين عن كنيستهم الوطنية فقد اشتركوا فى المنازعات السياسية والدينية فظلوا على مدى قرون عديدة خطراً كبيراً يهدد الإمبراطورية.

ذلك كان دور الرهبان المصريين على المستوى الوطنى وعلى المستوى الدينى أما على المستوى الثقافى فكما أسلفنا لقد لعبوا دوراً

هائلا لمحو أمية زملائهم الجدد كضرورة لأن يقرأ الرهبان تعاليم دينهم وقواعد نسكهم، ذلك الأمر الذى انطلق سريعا - خاصة فى حياة الديرية من خدمة الآخرين ومعاونتهم - ففاضت معارفهم على من يقدمون الخدمة والعون لهم وفيما يتعلق بحفظ التراث فقد قامت الديرية بنفس الدور الذى كانت تقوم به مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وذلك بعد اختفائها بعد ضعف تأثيرها فى القرن السادس الميلادى، حيث قامت الأديرة يحفظ تعاليم الكنيسة وأيضاً فى تربية وإعداد وتلمذة الكثيرين من الآباء والرهبان<sup>(٥٠)</sup>.

يضاف إلى ذلك أنه بعد أن استطاع «بنتينوس» صياغة اللغة القبطية بإضافة عدد من الحروف اليونانية إلى الابجدية الديموطيقية وكتبها بعد ذلك بحروف يونانية وبنطق ديموطيفى ليترجم حياة السيد المسيح والكتاب المقدس ليقراه المصريون فى بيوتهم وكنائسهم<sup>(٥١)</sup>، فقد قام الرهبان بتأليف وترجمة العديد من الكتب الكنسية والآبائية والروحانية مما ساهم بشكل مباشر فى صياغة الفكر القبطى وتدعيم المكتبة القبطية، كما يرجع الفضل إلى الأنبا شنوده فى تهذيب اللغة القبطية من الآثار البيزنطية حيث أصبحت على يديه لغة وطنية سهلة وميسرة وصالحة للكتابة والتعبير<sup>(٥٢)</sup>.

ولاشك أن صياغة اللغة القبطية يشكل إنجازا وطنيا ضخماً، فالمصريون وخاصة طبقاتهم الشعبية كانوا يكون العداء الخفى للهلينية

– ثقافة المستعمرين ولغتهم – فلما جاءتهم المسيحية واعتنقوها بصفتها القوة المخلصة ، كانت اللغة القبطية وكتابتها ودرغم أحرفها اليونانية تمثل انتقالة قومية هائلة يقول «بل»<sup>(٥٣)</sup> «كانت الكتابة القبطية هي الاسم الذي كان يطلق على ذلك الخط الجديد الذي كانت آخر صورة كتبت بها اللغة المصرية، وقبل أن يتقدم بنا العهد في القرن الرابع كان الكتاب المقدس كله في متناول القراء من المصريين، وأصبح الذين يستطيعون الكتابة اليونانية أكثر بكثير ممن يقرأون الديموطيقية، وفضلاً عن ذلك فكتاب القبطية كانوا يستخدمون صورة من الكتابة المصرية أكثر حداثة وأقرب إلى العامة مما كان يستعمله كتاب الديموطيقية.

وعلى ذلك نشأ أدب قبطى وافر ذو طابع إنجيلي ولاهوتي وطقسى، ولكنه فى القليل النادر علمانى – ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد وجدت روح مصر ذاتها وسيلة للتغيير المجرد من كل منبر، والكثيرون من الرهبان ..... كانوا من سلالات مصرية، وفى واقع الأمر أن الديرية (الرهبانية) كما وضع من قبل كانت فى أغلب الظن ثمرة انتاج مصرى قوى إلى حد ما، وعلى ذلك اتخذت الكنيسة المصرية طابعاً قومياً قوياً.

هكذا وعبر نضالات الشعب المصرى، وعبر اعتناقه للدين الجديد، والذي كان يمثل رد الاعتبار له ولمعتقداته الراسخة (الأوزيرية) استطاع مع غيره من الشعوب أن يجبر الإمبراطورية على الاعتراف بعقيدته الجديدة، فكان هذا وإلى حد كبير من اليقين يمثل نصراً

للمصريين، لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، لقد كان هناك طريق طويل وصعب من النضال عليه أن يقطع في مجال التحرر الثقافي من المستعمرين. لقد دارت نضالات هذا التحرر كلها منذ عام ١٩١٣م وحتى عام ٤٥١م، وفي مواجهة طغيان الأباطرة ورغبتهم في أن تكون العقيدة الجديدة حامية لإمبراطوريتهم من التفكك والانحلال.

وهذه هي القصة الحقيقية للصراع المذهبي والذي انتهى بالانقسام العقيدى النهائى عام ٤٥١ م بكنيسة غربية كاثوليكية وبكنيسة شرقية أرثوذكسية ثم بكنيسة مصرية خالصة هي الكنيسة القبطية المصرية التى تفرق حتى عن الارثوذكس الشرقيين الذين يؤمنون أيضاً بمذهب الطبيعة الواحدة.

### تنافس بين الأسقفيات أم صراع ثقافى وعقيدى ووطنى؛

صاحب ظهور المسيحية - وحفز أيضاً - ظهور حركة تحرير كبيرة لشعوب الشرق الأوسط من ريقة الامبراطورية الرومانية<sup>(٥٤)</sup> فعبر هذا الإيمان الجديد، وفي مصر على وجه التحديد، وكما ذكرنا من قبل، استرد المصريون يفيئهم بأن الظلم الدنيوى إلى زوال وأن العدل سوف يقام ميزانه، كذلك سطرت كتابة جديدة ومحدثة استطاعت أن تقطع التغريب الذى جرى للمصريين عبر عهود طويلة، وقامت فى الإسكندرية كنيسة استطاعت أن تكون الإطار الحامى للشخصية الوطنية المصرية والمدافع عن مصالح المصريين ضد الحكم الاحنبى<sup>(٥٥)</sup>.

صاحب أيضاً ظهور المسيحية وعلى مستوى الفكر الإنسانى ظهور اتجاهات متعددة لمحاولة ترسيخ الإيمان النظرى بتلك العقيدة الجديدة وإكسابها القناعة الفكرية، غير أن تلك المحاولات خرجت فى بعضها عن الاتفاق العام بين المسيحيين سواء فى مصر أو فى أنحاء الامبراطورية الرومانية كلها.

لقد كانت كل تلك الاتجاهات، محاولات للإجابة على السؤال الشائك الذى واجه المسيحيين ألا وهو العلاقة بين الله والسيد المسيح، فالعقيدة الثابتة الراسخة عند المسيحيين هى أن يسوع «هو المسيح ابن الله مخلص العالم» ولكن لأن الرسل وكل من عرفوا يسوع الجسد فى حياته وتكلموا معه ..... قد رحلوا عن العالم، فقد ابتدأ بعض الناس فى أماكن مختلفة يتساءلون عن الكيفية التى حدث بها هذا؟ هل بقى الله فى السماء بينما يسوع يقوم بعمله على الأرض؟ هل كان يسوع أزلياً وفى مساواة مطلقة بالله فى سلطانه ومجده؟ هل كان الاتنان

منفصلين ومتحدين في نفس الوقت؟ وإذا كان المسيح مادياً لله الآب، فكيف ترك المسيح السماء إلى الأرض؟<sup>(٥٦)</sup> يضاف إلى ذلك أيضاً أن تأثيرات الديانات القديمة خاصة في الشرق قد صاحبت هذه التساؤلات وإجاباتها فظهر كرفثويس في مصر، كذلك ظهر غنوسطيون في مصر، إلا أن هذه البدع كما يصفها القس «منسى يوحنا»<sup>(٥٧)</sup> لم تستطع أن تبقى في مصر وانقرضت آخر شيعة لهم في أواخر القرن السادس الميلادي، وأرجع تلاشيهم وانقراضهم إلى علماء المسيحيين الأفاضل الذين قاوموا كل تلك البدع والهرطقات.

من ناحية أخرى فإن المصريين المسيحيين لم يكونوا ليرضوا إلا بتفسيرات ورؤى كنيستهم الدينية هذه الكنيسة التي وصفت من قبل بأنها حاميتهم.

في الوقت نفسه، وكما أسلفنا فقد أرجع العديد من المؤرخين هذه المقاومة العنيدة لتلك البدع إلى الدور الذي لعبته المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية والتي يقال إن من أنشأها هو القديس مرقس الرسول وذلك في مواجهة المدرسة الهلينية الفلسفية (الوثنية) والمدرسة الفلسفية اليهودية والتي كان من أبرز علمائها الفيلسوف اليهودي «فيلون».

لقد لعبت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية دورها الكبير المؤثر في تثبيت الإيمان المسيحي من جهة وفي ترسيخ الروح الوطنية المصرية من جهة ثانية، وفي ربط الفكر المسيحي بالفكر الإنساني العقلاني من



جهة ثالثة، خاصة فى عهدھا الأول أيام بنتينوس وأكليمنس السكندرى وأوريجانوس العلامة<sup>(٥٨)</sup>، فضلاً عن يسطس أول مديرى هذه المدرسة والذى عينه مديراً لها القديس مرقس الرسول.

لقد تعددت البدع والخلافات الدينية حتى إبان عصور الاضطهاد والتى بدأت من عهد نيرون (بدع : سابيلوس، نيبوس صاحب بدعة الألف سنة، ببرلس - بولس السبمساطى، مانى .... هيراكس) ولقد استطاعت الكنيسة المصرية أن ترد هذه البدع وتوقفها عن الانتشار أما الخلافات الدينية (الدوناتيه والميليتسية) فقد واجهت الكنيسة المصرية تحديداً الميليتسية التى ترجع إلى «ميلتيس» اسقف أسيوط فى ذلك الوقت والذى رفض قبول أى مسيحى مرتد أثناء الاضطهاد الكبير الذى حدث فى عهد دقلديانوس وخليفته جاليريوس، بينما كان البطريرك بطرس الأول (آخر الشهداء) يقول بالتسامح ووضع شروطاً محددة لقبول هؤلاء المرتدين<sup>(٥٩)</sup> لقد وصل الأمر إلى حد انشقاق ميليتيس عن الكنيسة (أسقفية الإسكندرية) وتأسيس كنيسة مستقلة فى أسيوط شملت مصر الوسطى والعليا، غير أنها سرعان ما دب فيها الضعف خاصة بعد أن رضخ ميليتيس لحكم المجمع الذى عقده البطريرك بطرس الشهيد، وخضع بعد ذلك للبابا الكسندروس بطريرك الإسكندرية، إلا أنه انضم بعد ذلك للأريوسيين أثناء عهد البطريرك إثناسيوس.

غير أن كل هذا الذى جرى وإن جاء فى أحداثه ونتائجه مبلوراً

للرؤية الوطنية المصرية وتعضيداً لكنيسة الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية إلا أن الاحداث التي جاءت بعد ذلك والتي بدأت مع ظهور مبدأ الأريوسية، جاءت لتصنع بداية الطريق الطويل للمذهب المسيحي المصرى - القبطية - الأرثوذكسية «الايان القويم» ولتعزز النضال ضد الهيمنة الرومانية / البيزنطية، ولتقطع الطريق على الهيمنة الثقافية سواء لإنطاكية أو روما أو القسطنطينية فيما بعد.

وأيضاً جاءت لتبرز على السطح حقيقة التنافس بين الكنائس الرئيسية الثلاث في العالم الإسكندرية - إنطاكية - روما، في ذلك الوقت. يصف چون لوريمر<sup>(٦٠)</sup> الإسكندرية بأنها كانت مركزاً للحياة المسيحية مستدلاً على ذلك بمدرستها اللاهوتية وكل من أكليمنس وأوريجانوس والإضافات التي حققتها هذه المدرسة وأصبحت من الروافد الأولى للمسيحية سواء في مصر والعالم.

في إطار هذه الفترة كان قسطنطين قد أصدر مرسومه الشهير المسمى بمرسوم ميلان بعد ذلك في إطار التنافس والصراع مع القادة الآخرين فأصبح امبرطوراً وحيداً وأوحداً في عام ٣٢٤م عقب مقتل القائد المنافس ليسينيوس<sup>(٦١)</sup>.

الحقيقة لم يكن مرسوم التسامح يعنى اعتراف قسطنطين بالمسيحية أو بالأحرى لم يكن عند قسطنطين محض تسامح ديني إنما خالطه إلى حد كبير طموحه السياسى.

كانت الإمبراطورية الرومانية والتي اعتبرت في كل تاريخها أن

الدين يكون دائماً في خدمة الدولة.. ليس إلا.... والتي مارست اضطهادها الدموي والوحشي ضد المسيحيين لا ضد الديانة المسيحية باعتبارها متعددة الاديان والشعوب، والتي أنشأت وظيفة الكاهن الاعظم كوظيفة مدنية لضبط حركة المتدينين وكهنتهم وأملاكهم... هذه الإمبراطورية عندما شاهدت هذا الاتساع اللامتناهى لعدد المسيحيين فى إمبراطوريتها والنضالات التى شنها هؤلاء المسيحيون فى مواجهة الاضطهاد وتثبيت الإيمان، فإنها بإصدارها مرسوم التسامح إنما هدفت إلى ضمان وحدة الإمبراطورية كما تصور لها فى ذلك الوقت، وعندما يتلبس قسطنطين للكنيسة، فإنه يكون ويكون إمبراطوريته والذين من بعده، قد استخدموا هذه الديانة الجديدة والدماء التى أريقت من أجل تثبيت الايمان بها لمصلحة الامبراطورية لا لمصلحة المسيحيين أو المسيحية.

ونستطيع أن نستدل على ذلك ببضعة شواهد لا تخطئها العين، فهناك الاقتباسات التى أوردها «ليتزمان» وأوردها «لوريمر»<sup>(٦٦)</sup> من أحاديث قسطنطين والذى وصف نفسه فيها بأنه تلقى «تكليفاً إلهياً لتنفيذ عدالة الله بتحرير الشعب من عبودية الشيطان، والعمل على توحيدهم فى عبادة إله المسيحيين..... إلخ». ولننظر أيضاً إلى العبارة الختامية لمرسوم ميلان» إن الفضل الإلهي الذى اختبره عند هذا المنعطف الفاصل فى حياته سيسمر إلى الأبد بمطر المنافع والفوائد على خلفائه وفى نفس الوقت يضمن السعادة للإمبراطورية.

لقد استطاع قسطنطين أن يسيطر على الكنيسة فى كل أنحاء

الإمبراطورية وليس أدل على ذلك من قوله فى إحدى المناسبات موجهاً كلامه لجماعة الأساقفة «أنتم عينتم أساقفة لشئون الكنيسة الداخلية، وقد تعينت أنا أسقفا من الله لشئونها الخارجية» وللأسف عضدته كنيسة انطاكية وروما فى أن يعتبر نفسه نائباً عن الله فى حكم الإمبراطورية، حيث يوضح «يوسابيوس القيصرى» فى كتابة عن «حياة قسطنطين» هذه الفكرة بقوله:

«إله الكل»... الحاكم الأسمى لكل الكون، عين بإرادته قسطنطين... ليكون رئيساً وسلطاناً، فبينما يرتفع آخرون إلى هذه المرتبة باختبار أنصارهم، فإنه الإنسان الوحيد الذى يمكن لبشر أن يفاخر بأنه كان له يد فى رفعته)... قد يكون هذا الاستطراد عن قسطنطين والإمبراطورية وغرضها ضروريا لفهم لماذا تدخل قسطنطين فى الخلاف بين أريوس وإثناسيوس.. فالخلاف الذى انتشر وذاعت أنبأؤه مس إلى حد بعيد كل الكنائس الثلاث إنطاكية والإسكندرية وروما، وذلك أمر حرى بأن يهدد وحدة الامبراطورية الرومانية مرة أخرى.... وهذا أيضاً ما حدث خلال القرن الرابع نفسه لتتشطر الإمبراطورية رغم أنف جميع الاباطرة إلى شرقية وغربية ثم إلى الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية الغربية التى سحقت تحت أقدام البرابرة فى عام ٤٧٦م أى فى منتصف القرن الخامس الميلادى.

أريوس وإثناسيوس....

## بداية التدخل والانشطار واستقلال الكنيسة المصرية،

يقول «بل»<sup>(٦٣)</sup> في معرض حديثه عن الديانات الوضعية «انه رغم ابتداعها سلماً روحانيا كاملاً وضعت به الأرواح على مراتب ودرجات يمكن أن يتحقق عن طريقها اتصال بين المتعبد والمعبود إلا أنه ظلت من الصعوبة بمكان أن نجد أى نقطة تكون بمثابة همزة الوصل بين هذا وذاك» وكانت الميزة الكبرى للمسيحية في اعتقادها في التجسد، وفي وجود مخلص هو في نفس الوقت إله وإنسان».

لقد كانت هذه الميزة التي امتلكتها المسيحية وفقاً لرأى «بل» محل الاعتبار والتقدير لكل من آمنوا بها في كل انحاء الإمبراطورية، وإذا كان الأمر كذلك فما بالنا بحق.... شعبها الذي انتزع اعتقاده انتزاعاً من برائث كهنة الدولة المصرية عبر عصورها القديمة والوسطى والحديثة وحين استبدل بسلم الاله الروحاني الذين ارتفعوا إلى السماء، بذلك الايمان القوى والحميم بأن النيل والأرض والعمل والخير والفضيلة، والإنسان أولاً وأخيراً... كل أولئك يسعون إلى العدل والعدل يسعى إليهم لأنهم ضرورة وجوده، ومبرر بقائه.

لقد اصطنع المصري القديم إلهه إنساناً، ليرفعه إلى مصاف الإله، فكان إلهاً للخير قبل أن يقتل وإلهاً للخير وللعدل بعد أن بعثه للحياة مرة أخرى وفاء لزوجته ونضال ابنه الجسور «حورس» ولم يعد حورس إلا إلهاً من صلب أبيه كما أقر بذلك مجمع الآلهة كما ذكرت

## الاسطورة....

ورغم السلب الذى جرى، ورغم المسخ الذى حاولوا أحياءه فى سرايبس، فقد ظلت أيام النسيئ الخمسة باقية... فى الضمير.... وفى العقل.... وفى العمل.. حين يفكر المصرى فيحميه محتوى ضميره من الكفر بأن العدل سوف يأتى يوما... وفى العقل حين تنتظم أفكاره فيوقن بأن الله معه وحين يعمل... يزرع وفقاً لتقويمه الذى أبدعه فكانت أيام النسيئ خمسة.. تدعو إلى الخير والمحبة والسلام بين الناس وتعد المظلومين بالفردوس والخلود فى ملكوت ربهم، ويرتفع الداعى لهذه الديانة ليفتدى بنى الإنسان، فإن المصريين الذين امتنوا على أيدي محتليهم بل وعلى أيدي كهنتهم، لن يتسارعوا فقط إلى دخول الديانة الجديدة، بل يستشهدون دفاعاً عنها وعن معتقدتهم بالجسد وبالروح والدم كما نقول اليوم «مجرد قول» ويستدعون العقل فى مدرستهم اللاهوتية بالإسكندرية وفى أديرة الرهبان فى الصحراء، فتنشط أقوى جبهة دفاع عن العقل والوطن فى آن واحد.

هكذا كان موقف المصريين إبان ظهور العقيدة الأريوسية، تلك التى وصفها «بل Bell» بأنها بإنكارها<sup>(٦٤)</sup> لجانب المشاركة فى الجوهر بين الأبْن والأب، هدم لذلك الجسر الذى كانت المسيحية قد أقامته ليصل بين سمو الآله وبين ضالّة الإنسان وتفاهه قدره.

ولم يكن الأمر كذلك فقط عند المصريين، لقد كانت كنيستهم الأكثر

قوة وصلابة وعملاً تستحق معه أن تكون لها الرئاسة على كل الكنائس وأن تكون المرجعية للجميع، فهذه هي مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وهذه هي الأديرة والرهبانية، وهؤلاء هم شهادتها والذين كان آخرهم بطريركهم بطرس الأول.

وبينما كان الاضطهاد جارياً، وبينما كان قسطنطين يدعم وحده إمبراطوريته ويحاول الهيمنة حتى على مؤسسات الدين الجديد، جاءت الأريوسية لتحضنها كنيسة انطاكية، المنافس القوى والقريب من قلب الإمبراطورية.

لقد كان معدراً على الوطنية المصرية أن تتقوى وتتعزيز بهذا الخلاف حول هذا المبدأ الحيوي للعقيدة المسيحية، بدءاً من قانون الإيمان النيقى وحتى قانون الإيمان الخلقيدونى والذي على أساسه انفصلت الكنيسة المصرية ونهائياً عن هيمنة الامبراطورية الرومانية وعن الكنائس الغربية والشرقية على السواء وبقيت حتى الآن الكنيسة القبطية (المصرية).

لقد تصدى للآراء الأريوسية البطريرك أنطاسيوس فى المراحل الأخيرة من تلك الدعوة بعد أن ذاع صيت تلك الآراء منذ عهد بطرس الأول بطريرك الإسكندرية (٣٠٢-٣١١) وخلال عهده كل من ارشيلالوس والكسندروس الأول (٣١١-٣٢٨) وخلال هذه الفترة انتقلت أصداء هذه الآراء إلى أنحاء الامبراطورية الرومانية وتبنتها كنيسة

نيتومبديا، كذلك يوسابيوس (القيصري) الذي كان يحتل مركزا مرموقاً في القصر الامبراطوري .

بتطور الدعوة لآراء أريوس ونضامن كنائس الشرق معه (فلسطين - الشام - ليبيا وآسيا الصغرى) ودعوة الكسندروس بطريرك الإسكندرية كل اساقفة الشرق لمفاومة آراء أريوس وعقده عدة مجامع لإدانة أريوس، وحين عاد أريوس إلى الإسكندرية رفض الكسندروس عودته للكنيسة، كذلك حدثت مصادمات بين انصار كل من الفريقين<sup>(٦٥)</sup> .

في هذا الوقت لم يلبث قسطنطين أن فرغ من مشاكله السياسية بالانتصار على آخر منافسيه إلا ووجد تلك المشكلة الدينية أمامه، والتي تهدد وحدة الإمبراطورية، تلك الوحدة التي أصدر من أجلها مرسومه كما أوضحنا من قبل .

لم يكن أمام قسطنطين كإمبراطور روماني إلا أن يسير على نهج أسلافه وأن يضع الدين في خدمة الدولة فكان أن أرسل مستشاره الديني إلى كل من أريوس والكسندروس في الإسكندرية لرأب الصدع بينهما إلا أنه فشل في مسعاه .

لقد كان عليه أن يسارع بعقد مجمع يضم مختلف كنائس الإمبراطورية ليحقق أمرين أولهما هو سرعة حل الخلاف والشقاق الذي حدث في الكنيسة (جميع كنائس الإمبراطورية) ولحسم الأمر دفعة واحدة وثانيهما هو أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة . وبالفعل عقد المجمع



فى «نيقية» وحضرته مختلف الكنائس الشرقية والغربية ودار النقاش فى هذا المجمع حول نقطتين خلافيتين هما مساواة الابن بالآب فى الجوهر، والازلية، وفى النهاية قرر المجمع أن الابن مساو للآب فى الجوهر والازلية وحرّم كل من يقول بغير ذلك وحرمان آريوس وأتباعه من دخول الإسكندرية وكان لاقتراح قسطنطين بإطلاق اسم «الطبيعة الواحدة» على العلاقة بين الآب والابن محل القبول من المجمع، كذلك طبقت ونفذت قوانين مجمع نيقية بقوة الامبراطورية.

عقب وفاة الكسندروس الأول تم انتخاب أثناسيوس مستشار الكسندروس بطريركا وخليفة له على بطريركية الإسكندرية<sup>(١١)</sup>.

إلى هنا والأمريسير فى مجراه الطبيعى، دعاية لآراء ودعاية مضادة، ومجمع ينعقد ويعلن تأييده لآراء ويحرّم القول بآراء أخرى... إلخ.

غير أن الأمر لدى الإمبراطور ومصالح الإمبراطورية لا يسير فى مجراه الطبيعى، فالإسكندرية وكنيستها لا ينبغى لها أن تعلق الآن فوق القسطنطينية بجمعها كل تلك الكنائس والأساقفة وراءها فى موقفها من آريوس الذى انتصر له مجمع «نيقية».

وعليه دعا الإمبراطور مرة أخرى إلى مجمع ثان فى نيقية عام ٣٢٧م، كان معظم حضوره من الأريوسيين المدافعين آريوس قانوناً جديداً للإيمان مشابهما لقانون إيمان نيقية فقرّر الإمبراطور أن يعيده

إلى الإسكندرية مرة أخرى «وكتب إلى الكسندروس بأن يقبله مرة أخرى في منصبه الكهنوتي (أسقف كنيسة بوكاليا)» إلا أن الكسندروس قد وافاه أجله المحتوم وتولى بدلا منه اثناسيوس الذى رفض طلب الإمبراطور بإعادة كل من أريوس والميليتسيين إلى مراكزهم الكنسية الأولى. من هنا بدأت المؤامرات تحاك لعزل اثناسيوس المنتخب من قبل الشعب، بواسطة قوة الإمبراطور، غير أن هذا لم يحدث إلا في عام ٣٣٥ بعد أن عقد في مدينة صور مجمعاً آخر أعدت العدة فيه لإدانة اثناسيوس، ولعب يوسابيوس أسقف القيصرية وديوسابيوس أسقف نيقوميديا دورهما في إدانة اثناسيوس ورغم أن معظم الاتهامات التي وجهت له لم تكن لاهوتية إلا أنه عزل من رئاسة الكنيسة المصرية ونفى إلى بلاد الغال (فرنسا الحالية) في يوم ٧ نوفمبر عام ٣٣٥ م.

بوفاة قسطنطين تولى ابنه قسطنطيوس الذى أعاد اثناسيوس إلى كرسيه بالإسكندرية عام ٣٣٧ م، إلا أن الأمر لم يطل به إلا قليلا حيث دارت المؤامرات لإبعاده، وفعلاً تم تعيين أحد أساقفة آسيا الصغرى لتولى بطريركية الإسكندرية والذي لم يتمكن من البقاء إلا بسبب اعتماده على جيش الإمبراطور وحمايته، وعلى أثر ذلك ذهب اثناسيوس إلى روما حيث رحب به كل من البابا يوليوس أسقف روما والإمبراطور قسطنز إمبراطور القسم الشرقى.

هنا تطل علينا عبارة «ماسبيرو» التي أوردها بل<sup>(٦٧)</sup> والتي تقول «لم

يكن المذهب القائل بالطبيعة الواحدة (المونوفستيه) هرطقة في أساسه، وإنما كانت الغاية منه مجرد الانشقاق».

ونحن لا نقول بالهرطقة، فهذا أمر يرجع إلى الله العلى القدير، ولكننا نقول بأن ما جرى لإثناسيوس - وهو ما جرى للكنيسة المصرية - هو محاولة العزل والابقاء عليهم تابعين للإمبراطورية في مدينتهما وأنه أيضاً جرى في إطار الصراع والتنافس بين كراسى الأسقفيات الثلاث الكبرى روما، وكذلك كان الأمر يجرى والصراع على أشده بين شرق الإمبراطورية وغربها ويجرى في اتجاه العودة لإمبراطورية واحدة فقد أيد يوليوس بابا روما أثناسيوس بكل قوة، وخاطب مجمع صور/ أورشليم معلناً براءة اثناسيوس، غير أنه ألحق بخطابه عبارة تحمل معنى خطيراً يوضح إلى أى مدى وصلت المنافسة بين الكراسى الثلاث، تلك العبارة أعلن بها أن «لروما الحق في أن تتصرف كمحكمة استئناف للأحكام الصادرة في أى كنيسة»، وهو ما يعنى أن روما طالبت في خطابها بأن تكون لها الرئاسة الاسقفية على جميع الابروشيات الأخرى<sup>(٦٨)</sup>.

وفى إطار تطورات الاوضاع فى الإمبراطورية دعا كل من الإمبراطورين الشرقى والغربى إلى عقد مجمع يضم كنائس كلا من القطاعتين أملا فى رأب الصدع الذى حدث بين كنيسةى روما والقسطنطينية خلال مجمع سارديكا عام ٣٤٢-٢٤٣ م (حاليا صوفيا

البلغارية) إلا أن المجمع أدى إلى فصل الكنيستين نهائياً، غير أن الامبراطورين ضغطا على كلٍ من الجانبين وتم الوصول إلى حل وسط أعلن خلاله أساقفة الشرق إخلاصهم للقانون «النيقوى» وسمح لأثناسيوس بالعودة إلى الإسكندرية واستقبله أهل الإسكندرية استقبالا حافلا في عام ٣٤٦م.

عبر عشر سنوات قضاهَا أثناسيوس بطريركاً للإسكندرية في سلام كانت الأمور تجري في الإمبراطورية على نحو يركز فيه الامبراطور على كلٍ من السلطتين الزمنية والدينية في يديه، فبعد أن أصبح قسطنطيوس الإمبراطور الأوحده للشرق والغرب بعد الإطاحة بأخيه قسطنز، عقد مجمعين في أرلز في الغال وفي ميلان بإيطاليا سنتي ٣٥٣م، ٣٥٥م بتحريض من أحد الاساقفة شبه الأديوسيين تمت فيهما محاولات ناجحه لعزل أثناسيوس للمرة الثالثة إلا أن عزله هذه المرة لم يكن ليتم بسهولة عن كنيسته وعقيدته ومصريته أيضاً - ولم تجد الامبراطورية حلاً إلا بالقوة المسلحة، فحين جاء المندوب الإمبراطوري إلى الإسكندرية لينفذ القرارات الإمبراطورية لم يجد إلا القوة المسلحة بعد أن وجد أن الشعب لم يستجب لجهوده فضلاً عن أن أثناسيوس رفض الرحيل وترك منصبه. ورغم أن أثناسيوس نجا من المذبحة التي قتل فيها الكثيرين من أفراد الشعب فقد ظل منقياً داخل بلاده في حماية شعبه ولم تستطع أن تناله الامبراطورية، وخلال منفاه استطاع أثناسيوس أن يكتب الكثير (حوالي سبع مؤلفات) كانت كلها دفاعاً عن

أحققته في كرسى الإسكندرية وضد الإريوسية فضلا عن كتابه الذى ضمنه قصة حياة القديس «انطونيوس» أبو الرهبانية<sup>(٦٩)</sup>. فى الوقت نفسه، فقد ثار أهل الإسكندرية على جورج الكباودكى الذى أتى به الإمبراطور ليجلسه على كرسى الإسكندرية، ويشير د. رأفت عبد الحميد إلى أن اثناسيوس كان فى تلك الفترة مختبأ فى الإسكندرية وأنه كان يتدخل فى الاحداث ليرسم سيرها ومجراها<sup>(٧٠)</sup>.

عاد أثناسيوس إلى كرسىه فى عهد بوليانيوس إلا أن الأخير سرعان ما غضب عليه بسبب نشاطه ضد الوثنية، وضد الاريوسية فى آن واحد فنفى مرة أخرى فى عام ٣٦٢ إلا أنه هرب داخل البلاد ثم عاد مرة أخرى فى عهد يوبيانوس عام ٣٦٣ إلى كرسىه ولم يستمر فيه سوى سبعة أشهر حتى مات هذا الإمبراطور وتولى فالتر شتون الإمبراطورية وأمر بنفى جميع الأساقفة الأرثوذكسيين الذين سبق نفيهم بواسطة قسطنطنز إلا أن الشعب المصرى قابل ذلك القرار بثورة شديدة فراجع والى مصر عن تنفيذ الأمر إلى حين، إلا أن فالتر تراجع هو أيضا عن قراره وسمح له بالاستقرار على كرسى الإسكندرية فرجع إليه فى عام ٣٦٨ وله من العمر ٧٢ عام ومات فى ربيع عام ٣٧٣. وبقيت الكنيسة المصرية تسعى إلى استقلالها رغم كلمات الإمبراطور قسطنطينيوس التى تدل دلالة قاطعة على روح الهيمنة التى تملك هذا الإمبراطور والذى أطاح بها السكندريون رغم كل شئ... يقول قسطنطينيوس وهو يعزل إثناسيوس:

«كمستودع إلهى للقوة الملوكية، فإن سلطتى فى الكنيسة هى السلطة

الأعلى، كما هي أيضا في الدولة إرادتى، يجب اعتبارها ملزمة وأنا الذى اتهم أثناسيوس ... لتقم إرادتى مقام القانون كما هي مع الأساقفة السوريين»<sup>(٧١)</sup>.

وكما رأينا فإن الخلاف العقيدى لم يكن منبت الصلة بأحوال الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت من حيث استخدام الأباطرة لهذا الدين وتلك الاختلافات للحفاظ على سيطرتهم على تلك الإمبراطورية الشاسعة، ويهمنا فى الحقيقة أن نشير إلى أن مصر وعاصمتها الإسكندرية لم تكن إلا فى قلب هذا الصراع وإن كل المحاولات التى جرت وما صاحبها من إجراءات كانت تستهدف فى الحقيقة كسر شوكة أولئك البطارقة الذين برزوا كزعماء دينيين من جهة وزعماء للشعب المصرى من جهة أخرى. لقد كانت مصر محتلة بالجيش الرومانية لكنها فى نفس الوقت قد بدأت منذ جاءتها المسيحية تسعى للاستقلال، ولقد حدث هذا الاستقلال على الأقل فى جانبه الثقافى بشكل عام حين تم وضع الكتابة القبطية، وأضاف مصر بحركتها وشهادتها ومناضليها شيئا جديداً فى «النضال السلبي» الا وهو حركة الديرية والرهبانية، تلك الحركة التى استعادت لمصر أشياء كثيرة من روحها وصبرها، فكان التعليم وكان العمل، وكانت الدعوة، وكانت الاسس لتوضع سمات المسيحية المصرية ذات الصفات القومية التى لا تخطئها عين وكانت هناك أيضاً مدرسة الإسكندرية التى اعطت لللاهوت المسيحي دفعات قوية ردت بعمق على مجمل البدع التى ظهرت هنا وهناك ثم كانت

أخيراً وفوق كل ذلك كنيسة الإسكندرية، تلك التي جرى الصراع أساساً من أجل تقليص دورها وحصره داخل مصر وعاصمتها ويعرض لنا القس منسى يوحنا<sup>(٧٢)</sup> كيف كان الصراع يدور حول تقليص دورها، فإذا كانت هناك كنيسة جامعة هي كنيسة الله فإن الإسكندرية بتراتها وأعمالها تكون في أول درجات المراكز الدينية للكنائس في العالم، وإذا كانت المراكز الدينية تقاس قيمتها بقيمة المدن القائمة فيها، فإن الإسكندرية كانت قبلة العالم المتمدين آنذاك والأكثر قدماً من انطاكية وروما بل إن موقعها يحتم صحة هذا الرأي، كما أن الإسكندرية لم تفقد مكانتها منذ نشأتها من الناحية المدنية، وحتى الانشقاق الذي أحدثه ميليتس فإن مجمع الإسكندرية ومجمع نيقية سرعان ما ردا الأمور إلى نصابها.

لقد كان على الإسكندرية وكنيستها أن تستمرا في الدفاع عن مكانة الكنيسة المصرية، تلك التي استطاعت برجالها وعلى رأسهم اثناسيوس أن تدحر ونهائيا، الهرطقة الأريوسية ولم يكن موقف البابا تيموثاوس الأول بطريرك الإسكندرية الثاني والعشرين في مجمع القسطنطينية (المجمع المسكوني الثاني عام ٣٨١م) إلا احتجاجاً على تناسي جهاد باباوات الإسكندرية الافاضل وعدم اعتبار المعروف منذ القدم وهو أن لكرسى الإسكندرية المكان الأول بين الكنائس<sup>(٧٣)</sup>.

لقد كان على الكنيسة ورجالها أن يستمرا في أداء دورهما الدينى والاستقلالى فى آن واحد وأن تفصل فصلاً بيناً ما بين رئاسة الدولة

الإمبراطورية وما بين الدين وكهنته وهو ما يبدو واضحاً حدوثه فيما سيأتى من أحداث وهو أيضاً الذى سيكرس استقلال مصر الشعب والناس عن الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية على السواء.

لم يمض على رحيل اثناسيوس سوى نسعة وثلاثون عاماً، إلا وعاد النزاع مجدداً بين الكنيسة المصرية والآراء الدينية المخالفة لها من جهة وبين الكنيسة المصرية والإمبراطورية البيزنطية من جانب آخر.

حملت نهايات القرن الرابع الميلادى أحداثاً كثيرة كان من أبرزها الانقسام النهائى للإمبراطورية الرومانية فقامت الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية فى الشرق وقامت الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما فى الغرب، هذه الإمبراطورية التى سرعان ما سقطت عام ٤٧٦ م تحت غارات البرابرة.

وفىما يتعلق بالإمبراطورية البيزنطية فإن التقدم الذى حدث للكنيسة خلال القرن الرابع كله من حيث البناء والتنظيم واتساع مريديها قد واكبته سيطرة واسعة للدولة على الكنيسة أيضاً فيما عدا الكنيسة المصرية، وفىما يتعلق بالكنيسة فى القسطنطينية فقد نشأت فى حضان الإمبراطور وسلطانته.

من ناحية أخرى فقد شهد القرن الرابع كما لاحظنا تطوراً هائلاً فى اللاهوت المسيحى، ذلك التطور الذى بدأ من القرن الثانى الميلادى وتحديداً عبر مدرسة الإسكندرية وقبل أن تعترف الامبراطورية بالمسيحية نهائياً، غير أن أهم ما يميز تطورات القرن الرابع هو الحسم



لبعض قضايا اللاهوت الأساسية على مستوى الكنيسة الجامعة، والتدخل القوى للامبراطور خاصة في كنيسة الشرق والذي استسلمت له الكنيسة الشرقية، حيث تدخل الأباطرة لا في سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل في نظمها وسياساتها الداخلية أيضاً.

وفي العصر البيزنطى أصبح من العسير وقف تدخل الامبرطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية حتى غدا هذا الامبراطور يمثل نوعاً من «القيصرية البابوية» أى الجمع بين السلطين السياسية والدينية.

وكما يقول د. سعيد عبد الفلاح عاشور فإن قسطنطين كان هو واضع هذه السياسة حيث استن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة البيزنطيين والشرقيين وهى قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية<sup>(٧٤)</sup>.

وفيما يتعلق بمصر فقد عادت من جديد الخلافات الدينية واللاهوتية تدفع كنيسة الإسكندرية إلى التصدى لها، وكانت أولى هذه القضايا اللاهوتية الخلافية قضية وثيقة الصلة بقضية الطبيعة الواحدة، وهى، كيف يمكن منطقياً أن يتحد الناسوت واللاهوت فى شخص السيد المسيح.

غير أن أمر القضايا الخلافية لم يكن منبت الصلة بموضوع مكانة الكنيسة المصرية (كنيسة الإسكندرية) وريادتها لكنائس العالم آنذاك،

كذلك لم يكن منبت الصلة بالقوة والسيطرة التى حققها الاباطرة على الكنائس الشرقية آنذاك.

فى عهد تاؤفيلس البطريك الثالث والعشرين (٣٨٥-٤١٢) نشبت النزاعات بينه وبين يوحنا ذهبى الفم بطريك القسطنطينية، ذلك النزاع كان مرتكزه الأساسى قوميا مصرياً، فالكنيسة المصرية فى شخص رئيسها فى ذلك الوقت كانت ضد أفكار وآراء اوريجانوس اللاهوتى المسيحى الشهير وعندما تبنى بعض الرهبان (الأخوة الطوال)<sup>(٧٥)</sup> مواقف أوريجانس، تلك المواقف التى ناصبتها الكنيسة العداء منذ عهد ديمتريوس (لشبهة الهلينية) وعندما لجأ هؤلاء الرهبان ومعهم آخرون إلى يوحنا ذهبى الفم فى القسطنطينية فى عام ٤٠٤م طالبين منه الانصاف من بطريركهم، فقد اعتبر تاؤفيلس مناصرة يوحنا لهم بمثابة تدخل يتناقض مع قرارات مجمع نيقية، مشيراً إلى أن من لهم الحق فى توجيهه ومحاكمته هم فقط الأساقفة المصريون . وقد أفصى هذا النزاع إلى نفس يوحنا ذهبى الفم بعد أن استخدم تاؤفيلس كل السبل لاتخاذ القرار بما فيها سلطة الامبراطورية نفسها، ويؤكد قولنا بأن النزاع كان قوميا مصرياً ما ذكره منسى يوحنا<sup>(٧٦)</sup> من أن أول من أطلق على كنيسة الإسكندرية اسم الكنيسة القبطية كان هو البطريك تاؤفيلس .

ويشير رأفت عبد الحميد<sup>(٧٧)</sup> من ناحية أخرى إلى ما ذكره (سقراط

في تاريخه الكنسي) أن أصل الخلاف بين تاؤفيلس ويوحنا ذهبي الفم كان يرجع إلى امتعاض تاؤفيلس الكامل من قرار مجمع القسطنطينية الثاني عام ٣٨١م والذي وضع كنيسة القسطنطينية على رأس الكنائس تابعها روما ثم الإسكندرية فأنطاكية، مما دفعه إلى تحقيق الغرض لتفريع هذا القرار من محتواه فكان أن حاول فرض أحد رهبانه الطيعين أسفا على كرسى القسطنطينية عام ٣٩٨ حتى تكون له السيادة المباشرة عليه إلا أن الدوائر السياسية في القسطنطينية اختارت رجل أنطاكية الورع، مما دفع تاؤفيلس إلى التصريح بعدم رضائه عن سياسته إلا أنه أذن أمام إرادة القصر الامبراطوري.

في عهد بطريركية «كيرلس الأول الكبير» وتحديدًا في عام ٤٢٨م اعتلى كرسى الاسقفية في القسطنطينية «نسطوريوس» أحد تلاميذ المدرسة العقلانية الانطاكية التي تخرج فيها من قبل القس السكندري أريوس الشهير<sup>(٧٨)</sup>. وقام نسطوريوس هذا بنقد قانون الايمان الذي اخرج عليه وأعلن قراراً منفرداً بلعن كل من لا يقول بأن مريم هي «أم المسيح» وليست أم الاله. واستطاع نسطوريوس أن يوظف السلطة الإمبراطورية لفرض آرائه فأخضع هياج العامة وحرم الإكليروس المعارض لنسطوريوس كذلك وقفت انطاكية إلى جانبه. أما الإسكندرية فقد وفقت منذ البدء في وجه هذا القول وهذا الخروج على مقررات مجمع نيفية وساندتها كنيسة روما.

أمام هذا الانقسام دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني إلى عقد مجمع

بمدينة «أفسس» عام ٤٣١ م بناء على طلب البطريرك كيرلس الأول<sup>(٧٩)</sup>. استطاع كيرلس في هذا المجمع أن يأخذ منذ البداية زمام المبادرة، حيث حضره منذ البداية مائتان من الأساقفة وأصدر المجمع حكمه بإدانة نسطوريوس، غير أن الأخير استخدم من أساليبه فعقد مجمعا من أربعين أسقفا من أنصاره برئاسة يوحنا الانطاكي قرروا فيه تحريم حكم مجمع كيرلس ومقاطعته أيضاً، إلا أنه بوصول نواب اسقف روما ثم عقد مجمع آخر حرم فيه يوحنا الانطاكي.

تطورت الأمور بشكل مأساوي بعد ذلك فأمر الإمبراطور بسجن وعزل رؤس الصراع نسطوريوس وكيرلس وممنون اسقف مدينة «أفسس» المصري الأصل. إلا أن كيرلس سعى عبر وسائله ومؤيديه إلى إبراز وجهة نظره أمام الإمبراطور حتى استطاع في النهاية أن يستصدر أمراً منه بإعادته وممنون إلى اسفقيتيهما ونفى نسطوريس إلى النبراء ثم إلى مصر في مدينة إخميم بالصعيد (مازال قبره هناك ويعرف باسم تل نسطور) وتبع ذلك صدور مرسوم إمبراطوري عام ٤٣٥ باعتباره اراء نسطور محض هرطقة وضلال<sup>(٨٠)</sup>.

لقد أفضت تلك المواجهة إلى نتائج عميقة ستظل آثارها تعمل لمدة ما يقرب من عشرين عاما وحتى الاستفلال النهائي للكنيسة المصرية «القبطية» عن كل من الدولة والكنيسة سواء في روما أو القسطنطينية كذلك عن سيطرة الإمبراطورية (الباباوات القياصرة).

كانت أولى نتائج هذه المواجهة هي أن الكنيسة المصرية «القبطية» قد

حققت نصراً كبيراً ومؤكداً على القسطنطينية شكك إلى حد بعيد في أحقية الأخيرة في أن تكون في المنزل الأولى بين كنائس العالم آنذاك، أما ثاني هذه النتائج فكانت تلك المكانة التي حققتها الكنيسة المصرية ولأول مرة في تاريخ الامبراطورية ( ماعدا قسمها الغربي) حين استطاع كيرلس أن يصبح بموجب انتصاره هذا بمثابة السيد العلى في مصر حتى على السلطة الممثلة للامبراطورية نفسها فكان يصدر إليهم الإوامر واجبة الطاعة، وكانت ثالث تلك النتائج هي اتساع مرجعية الكنيسة المصرية «القبطية» لدى كنائس الشرق والغرب جميعاً بالرغم من المحاولات التي جرت حتى بعد ذلك لتنسب لها أراء توجب توجب حرمان (Excommunication) في ذلك الوقت وبينما كانت كنيسة روما تحتل المرتبة الثانية بين الكنائس حسب مقررات المجمع المسكونى الثانى عام ٣٨١م، فإنها لم تشهد في النصر الذى حققه كيرلس وكنيسة الإسكندرية «القبطية» سوى خطر يجب تلافيه، فسعى «ليو» (لاون) إلى التقرب من بابا الإسكندرية تخوفاً من بأسه وهى الكنيسة العريقة تاريخياً ولاهوتياً، ليس بغرض التسلل إلى زعامة الكنيسة الجامعة بعد أن تم إذلال كبرياء القسطنطينية التى فرضت نفسها على الكراسى الرسولية بموجب قانون مجمعى<sup>(٨١)</sup>.

فى عام ٤٤٤م ارتقى الكرسي المرقسى البطريرك «ديوسقورس» واستمر كذلك فى نبذه «لبدعة» نسطوريوس، وكشف زيفها<sup>(٨٢)</sup> ويشير جون لوريمر<sup>(٨٣)</sup> إلى أن ديستورس رغم أنه لم يكن على درجة كيرلس

فى العلم اللاهوتى إلا أنه كان مصمما على المضى فى النضال ضد المدرسة الانطاكية .

فى عهده ظهرت بدعة جديدة لأحد الرهبان (رئيس دير فى القسطنطينية) يدعى أوطاخى، وكان هذا الراهب متشدداً فى مواجهته لبدعة نسطورس للدرجة التى دفعته إلى القول بأن الطبيعة الإلهية للسيد المسيح قد استوعبت تماماً الطبيعة البشرية بعد التجسد<sup>(٨٤)</sup> .

وحين نستعرض وقائع ظهور هذه البدعة وإدانتها نرى واضحاً إلى أى مدى كانت الكنائس الرئيسية الثلاث تسعى كل منها فى حقيفة الأمر إلى الدفاع عن مكانتها وتأكيد ما وإزاحة الكنائس الأخرى عن المرتبة الأولى لتحتلها هى .

فحين وصل إلى مسامع أسقف القسطنطينية فلابيانوس الصراع ضد أوطيخا أدرك أن جدلاً آخر سيثار وسوف يضر بكنيسته على أى نحو سواء من الإسكندرية أو روما، فآثر أن يتم تكتم الأمر على أن تجرى مناقشته سراً وإرجاعه عن بدعته غير أن هذه الطريقة فشلت، لكن الأمر لم يتوقف فقط عند هذا الحد فقد بعث أوطيخا إلى ليو (لاون) أسقف روما بخطاب يحاول فيه استمالته إليه، فى نفس الوقت علم فلابيانوس بأمر هذا الخطاب فخاف أن يستميل أوطيخا لاون إليه، إلا أن أسقف روما مال إلى إدانة أوطيخا، وفى عام ٤٤٨م تم عقد مجمع دينى فى القسطنطينية برئاسة فلابيانوس تم فيه إدانة أوطيخا واعتباره

هرطوقيا. من ناحية أخرى كانت الإسكندرية العدو اللدود للأريوسية ترى وعلى رأسها ديسفورس أن أراء أوطيخا تمثل دحضا كاملاً لعقيدة أريوس وأنه ما على الكنيسة إلا أن تدفعه إلى التخلي عن آرائه في الطبيعة الواحدة، والعودة إلى أراء كيرلس السكندري في هذا الأمر.

ومن ناحية ثالثة كان أوطيخا اثيراً لدى الامبراطور وصديقاً له فاستقر أمره على عقد مجمع في مدينة أفسس عام ٤٤٩م على أن يتراسه البابا ديسفورس بابا الإسكندرية نظراً لمعرفته أنها تؤيد أوطيخا بتحفظاتها.

في ذلك الوقت كانت الإسكندرية تشعر بالزهو حقاً فهاهى القضية الثانية التى تبرز فيها مرجعيتها اللاهوتية مما يضعها في المرتبة الأولى بين الكنائس في العالم.

ذهب ديسقورس ومعه الرهبان المصريون وعدد كبير من الاكليروس المصرى، قاصداً من ذلك أن يشيع آخر بقايا الأريوسية إلى حتفها الأخير. فقام بعمله في هذا المجمع على نحو مزدوج الأول هو أن يرد أوطيخا إلى صوابه الارثوذكسى السكندري والثانى هو أن يستخدم القوة النابعة من رئاسته للمجمع والنابعة أيضاً من الرهبان والاكليروس المصريين الذين جاءوا معه وذلك لكي يضمن الانتصار لآرائه وآمال كنيسته في أن تصبح الأولى من حيث المكانة والمرجعية<sup>(٨٥)</sup>.

قد تكون المكانة والمرجعية هنا حقاً، غير أن الحق في النهاية لا

يتجزأ، لقد لجأت الكنيسة وديسפורس هنا إلى قوة الإمبراطور بأكثر كثيراً مما لجأت إلى قوة منطقها الذي عودتنا آياه في صراعها من أجل مكانتها وحتى من أجل استقلالها عن هيمنة الإمبراطورية لقد استخدمت في هذا المجمع القوة لإخراج قراراته، وهذا واضح من كتابات معظم المؤرخين، وهو ما يتنافى في حقيقة الأمر مع الرصانة والتي تشكل أحد الركائز القوية في إحقاق الحق.

ولا نستطيع هنا إلا أن نميل إلى رأى «بل» فيما يتعلق بديسפורس حين وصفه بأنه «كانت تعوزه الكياسة والحكمة السياسية والرفقة التي كان يتصف بها كيرلس، وأن النصر الذي تم له كان بطرق هوجاء للدرجة التي أثارت عصبية قوية تألفت ضده»<sup>(٨٦)</sup>.

لقد تم النصر لديسפורس في معركة المسيح كما يقول «د. رأفت عبد الحميد»<sup>(٨٧)</sup>. وقدر لكنيسة الإسكندرية أن تنال الزعامة الكنسية عبر أنثاسيوس وكيرلس وديسפורس.... غير أن كل ذلك ارتهن بحين معين ووقت محدد، قد يكون زمن حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في ذلك الحين، وقد تكون مجريات الصراع والمنافسة بين المراكز الكنسية الثلاث الإسكندرية، القسطنطينية، روما، هي التي حددت هذا الحين وذلك الوقت.

لم يكن للقسطنطينية أن ترضى بهذه الضربات الثلاث القاتلة دون



أن تسعى إلى قسم ظهر الإسكندرية أو على الأقل وقف طموحاتها، ولم تكن روما لتقبل بأن تسمو الإسكندرية عليها وهى الكنيسة الرسولية التى أسسها بولس .

أما القدر أو القدر المصطنع فقد قال قولته بعد قليل من انفضاض مجمع أفسس، فقد مات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى بعد أن سقط من على صهوة جواده !! فى عام ٤٥٠ م وتم اغتيال أبرز خلصائه فى القصر، وتزوجت بوليشريا (بوليكريا) اخت ثيودوسيوس بعد أن نقصت نذر بتوليبتها من القائد العسكرى ماركيانوس، لتستبقى ورائة الامبراطورية فى بيت أسرتها، ولم تكن «بوليكريا» لترضى بأقل من أن تكون لها كل الأمور كما كان لأسلافها الأباطرة، ولم يكن أمام منهج «القيصرية البابوية» من حائل إلا صعود كنيسة الإسكندرية الذى أذهل الجميع .

سرعان ما كانت الترضيات السياسية هى الحل، فبينما كانت بوليكريا وماركيان يسعيان إلى روما لتقبل الجديد فى الشرق الذى أحدثه زواجهما ليثبت ماركيان على العرش ولتبقى السلطة فى بيت بوليكريا، ولأن الإمبراطورية الغربية كان لها القول الفصل فى إقرار ما جرى فقد كان على ماركيان أن ينال رضا أسقف روما وصولاً إلى زميله فى الغرب لتأمين عرشه وكان أن استجاب لقوره فى ٤٥١ م لطلب ليون (لاون) اسقف روما لعقد مجمع مسكونى فأمر بعقده فى

خلفيدونية لتتحالف كنيستا روما والقسطنطينية ضد كنيسة الإسكندرية ولم يكونا هما الضدين الوحيدين، فقد سبقتهما الإمبراطورية نفسها لتؤكد كلية جبروتها ضد كنيسة الإسكندرية حيث رجعت إلى سنة قسطنطين وترأس نواب الإمبراطور المجمع دون أن يكون لأى من الاساقفة رئاسة المجمع ولتكون لقراراته سلطة الإمبراطور بجانب سلطة الأبرار الدينية فتحقق «بابوية الفياصرة وقصرية الباباوات».

عند عقد المجمع كان واضحاً أن الغرض ليس البحث فى صيغة مستقرة للإيمان بقدر ما هو كسر شوكة الإسكندرية وبطريركها، حيث تم وضع ديسفورس على كرسى الاتهام ورفضت قرارات مجمع أفسس وتم عزل ديسفورس وخمسة أساقفة آخرين، وأصدر المجمع قانون إيمان جديد اعتمد فى الحقيقة على تعاليم كيرلس حيث توسط الطريق بين النسطورية والأوطاخية وكأنما أراد المجمع أن ينفى ديسفورس ويبقى على كنيسة الإسكندرية.

على الناحية الأخرى الجنوبية من البحر المتوسط كانت الإسكندرية شعباً وكنيسة وخلفها مصر كلها تعلن عن رفضها لكل ما جرى فى خلفيدونية، فمن ناحية قطعت الكنيسة المصرية «القبطية» علاقتها باللغة اليونانية وتحولت عنها نهائياً إلى القبطية، وهكذا فقد كان ابرز آثار هذا المجمع اتخاذ مصر لطريق مستقل على مستوى العقيدة الدينية وعلى مستوى اللغة، أما على مستوى الاستقلال الكلى فقد كان عليها أن

تقطع شوطاً طويلاً لكنها لم تنقطع ابداً عن المقاومة الصلبة والشجاعة والتي حافظت على سمات وملامح شخصية مصر القومية<sup>(٨٨)</sup> بعد أن أضرموا نار الثورة في الإسكندرية وتجدد الاستشهاد في كل مصر آنذاك على مستوى الأحداث، فلم يقبل المصريون اعتلاء بروتيريس البطريك الدخيل للكرسى المرقسى، وبعد ديسفوس انتخب المصريون بطريكاً جديداً كان يعمل أميناً لأعماله قبل أن ينفى هو الانبا تيموثيوس والذى عقد مجمعاً من أساقفته حرم فيه كل من يقبل قرارات خلقيدونية وأثناء حياته قامت ثورة في الإسكندرية نتيجة القضاة التي ارتكبها الجيش الرومانى قتل على أثرها البطريك الدخيل وعلى أثر ذلك نفى الإمبراطور مركيانوس بطريك الإسكندرية وأخيه إلى نفس الجزيرة التي مات فيها ديسفوس (جزيرة صنجرا جنوب اليونان) .

غير أنه بوفاة الإمبراطور مركيانوس أفرج عن البطريك تيموثيوس فى عهد الإمبراطور ياسيلسكوس الذى افتتح بوجهة نظر البطريك المصرى فأمر باعتماد قرارات المجامع الثلاث بنيقية والقسطنطينية وأفسس دون قرارات مجمع خلقيدونية التى أمر بإحراقها هى وطومس لاون، ونقلت رفات ديسفوس إلى الإسكندرية.

غير أن أمر باسيلسكوس لم يستمر طويلاً حيث اغتصب العرش منه «زينون» وكان مشايعاً للخلقيدونية وأمر بنفى البطريك بطرس الثالث

بطريرك الإسكندرية الجديد إلا أنه اختفى فى ضواحي الإسكندرية، وعندما عاد بطرس الثالث إلى كرسيه استطاعت الكنيسة المصرية أن تعاود اتصالاتها بالكنايس الشرقية وفقاً لشروطها والتي تمثلت فى إدانة قرارات مجمع خلقيدونية والإقرار بقرارات المجامع الثلاث سائلة الذكر واستمرت العلاقات هادئة بين الكنيسة وبين الاباطرة البيزنطيين طوال عهود إثناسيوس الثانى ويوانس الأول والثانى وديسفورس الثالث وحتى بدايات عهد تيموثيوس الثالث إلى أن اعتلى عرش الإمبراطورية يوستينيان الأول والذى كان ميالاً إلى الخلقيدونية ولم تلبث الأحداث أن جرت لينفى البطريرك المصرى بعد أن جرد قوة كبيرة قتلت الكثير من المصريين وسأقت البطريرك إلى منفاه .

وفى عهد البطريرك ثيودوسيوس (٥٣٦-٥٦٧) طالبه الإمبراطور بالتوقيع على قرارات مجمع خلقيدونية إلا أنه رفض رفضاً منيعاً وعندما دعاه إلى القسطنطينية للتحاقم سجنه هناك وعين بدلاً منه بطريركاً آخر دخيلاً، فاجتمع الكهنة مع الشعب بدعوى أنه تم نفي كل الاساقفة وقرروا بناء كنيسة لهم لا يدخلها هذا البطريرك الدخيل .

سمح والى الإسكندرية للمصريين بانتخاب بطريركهم بطرس الرابع عام ٥٥٩ - غير أن الإمبراطور بوسنين الثانى أعلن حرباً على المصريين فنفى بطريركهم والأساقفة الذين اختبأوا داخل البلاد ولم يكتف بذلك بل شحن كل قمح مصر إلى القسطنطينية .

على أن القرن السادس كله ورغم ما شاهده من حوادث ونكبات على المصريين إلا أنهم ظلوا على معتقداتهم متمسكين باستقلال كنيستهم وعلى ذلك فإن جميع المؤرخين يشيرون إلى ميزتين عظيمتين لهذا القرن ألا وهما : المقاومة الشعبية المستمرة والتي تحولت في بعض الاحيان إلى ثورات أجهضت بواسطة القوة الغاشمة. وثانيهما أن باباوات الإسكندرية كانوا على درجة عالية من الكفاءة مكنتهم من مقاومة أى محاولة لانتزاع استقلالهم العقيدى .

في بدايات القرن السابع ومع مزيد من إنهيار الإمبراطورية البيزنطية تزايد الاضطهاد البيزنطى للمصريين اصلا فى جذبهم إلى الإمبراطورية، وقد ضوعف الاضطهاد على يد الإمبراطور «فوقاس» ونفى البطريك «اذستاسيوس» وتعاضمت حركة الالتجاء إلى الصحراء ولم يلبث الصدام طويلا حتى أمر (فوقاس) واليه فى مصر بالاستيلاء على الكنائس المصرية ووضعها تحت أمره البطريك الدخيل (اولوجيوس) حيث قامت ثورة عارمة استشهد فيها الكثير من المصريين<sup>(٨٩)</sup> .

وفى إطار الصراع بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، استطاعت فارس أن تحتل مصر وتنتزع اجزاء واسعة من أملاك البيزنطيين فى الشرق، وأثناء احتلال الفرس لمصر، تعاضم اضطهاد المصريين حيث دمرت الادييرة والكنائس وحاولوا فرض النسطورية

على المصريين، تلك البدعة التي قاومها المصريون من قبل بقيادة الإكليروس Clergy.

وحين عادت مصر إلى سيطرة بيزنطة بعد سنوات ست من الاحتلال الفارسي فإن محاولات الامبراطورية البيزنطية لم تتوقف عن توجيه ضرباتها إلى الكنيسة المصرية، وشن الاضطهاد الاقتصادي والديني ضد المصريين.

ورغم إدراك هرقل لفداحة الظلم الواقع على الولايات البيزنطية وفي القلب منها مصر، ذلك الظلم المنمثل في الضرائب الباهظة التي أثقلت كواهل أهلها، إلا أنه لم يكن في مقدوره الاستغناء عن حصيلة الضرائب فضلا عن القمح الذي كان يشحن شحنا إلى الإسكندرية، ولم يكن أمامه إلا استعادة سنة أسلافه باستخدام الدين كوسيلة للهيمنة على الامبراطورية، وقد لاحت له فكرة هذه الاستعادة بعد المقاومة التي أبداها المصريون ضد محاولات الامبراطورية الفارسية فرض مذهب النسطورية عليهم وهو المذهب الذي رفضته القسطنطينية أيضاً من قبل.

لقد سعى هرقل بعد اكتمال انتصاراته على الفرس واستعادته لأماكن الامبراطورية في عام ٦٢٨ م، إلى استعادة هيمنته على أرجاء امبراطوريته المتداعية رغم انتصاراته فذهب إلى ابتداع عقيدة جديدة يحاول بها أن يوحد قلوب شعوب امبراطوريته تلك القلوب التي لم يكن لها أن تأتلف أبداً في إطار عقيدتين متنازعتين أفرزتهما قرارات مجمع

خلفدونية والتداعيات الناتجة عنها.

فخلال حروبه ضد الفرس التي استمرت من عام ٦٢٢ وحتى عام ٦٢٨، تفاوض مع بطاركة وزعماء الكنائس الشرقية على رأب الصدع العقدي أملاً في رأب التصدع في امبراطوريته متبنياً مبدأً جديداً هو «المشيئة الواحدة» محاولاً التوفيق والتسوية بين مذهبي الطبيعة الواحدة، والطبيعتين، فكانت فحوى هذا المبدأ الجديد هو أن للمسيح في الحقيقة طبيعتين - على عكس ما بفول به المذهب المونوفستي - غير أنه ذو اراده واحدة أو مشيئة واحدة<sup>(٩٠)</sup>.

لقد أيد الأرمن والاكرد والانطاكيون الامبراطور هرقل في هذه البدعة التي كان المراد بها الهيمنة على كل شيء آخر وسانده بالطبع اسقف القسطنطينية.

لم يكن المصريون على استعداد لقبول بهذا الرأي، وبدأت الكنيسة والشعب معها في مناوأة القسطنطينية من جديد، فقد نظر المصريون إلى هذه البدعة الجديدة في جانب أساسي منها باعتبارها منتجاً ومعضداً في آن واحد لاستمرار الاحتلال والهيمنة والاستغلال، فما كان من هرقل إلا أن عزل البطريرك الشرعي (الانبا اندينيكوس).

بعد ثلاث سنوات من استعادة مصر ضمن أملاك الامبراطورية البيزنطية، وفي إطار أجبار جميع الكنائس على القبول بمذهبه الجديد فقد عين هرقل أسقفاً يسمى قورش (قيرس) والمسمى عند العرب بـ «المقوقس» ليشغل وظيفة بطريرك الإسكندرية وفي الوقت نفسه والياً

---

على مصر (الجمع بين السلطتين المدنية والدينية) ليتمكن بهاتين السلطتين من إجبار الكنيسة المصرية على قبول هذا الرأي الجديد، غير أن المصريين، كما أوضحنا من قبل، رفضوا تلك البدعة الجديدة مما أدى بـ «قورش» إلى شن حملة عنيفة من الاضطهاد<sup>(٩١)</sup> اختفى على أثرها «الأنبا بنيامين» (الذى انتخبه المصريون بعد عزل الأنبا أندرينيكوس) بين شعاب ودروب بلاده، ولم يعد إلى كرسي البطريركية إلا بعد أن جاء العرب إلى مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المصريين.



## المراجع:

- (١) طاهر عبد الحكيم - مرجع سبق ذكره ص ٨٥.
- (٢) سليمان مطهر - قصة الديانات - مكتبة مدبولي طبعة ١٩٩٥ - القاهرة ص ٣٩٦.
- (٣) سليمان مطهر - نفس المرجع ص ٣٩٧.
- (٤) د. سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى ح ١ - التاريخ السياسي الطبعة العاشرة ١٩٨٦ - مكتبة الانجلو ص ٤٨-٥١.
- (٥) د. حسين فوزي - صراع القومية المصرية - من غزو الاسكندر وحتى الفتح الإسلامي المجلة - العدد الأول - يناير ١٩٥٧ - ص ٣٠-٤٣.
- (٦) هارولد دبل - مرجع سبق ذكره ص ١١٥-١١٦.
- (٧) سليمان مطهر - مرجع سبق ذكره ص ٣٩٤-٤٠٧.
- (٨) أحمد صادق سعد - مرجع سبق ذكره ص ١٢٢/١٢٣.
- (٩) هارولد دبل - مرجع سبق ذكره ص ١١٦.
- (١٠) البابا شنودة الثالث - ناظر الإله الإنجيلي - مرقس الرسول - القديس الشهيد الطبعة الرابعة أغسطس - مكتبة المحبة - القاهرة.
- (١١) هنري رياض - الموسوعة المصرية - تاريخ مصر القديمة وآثارها في العصر اليوناني والروماني - المجلد الأول - الجزء الثاني (م - مرقس القديس).
- (١٢) ليلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سبق ذكره - ص ٢٤.
- (١٣) البابا شنودة الثالث - مرجع سبق ذكره ص ٩.
- (١٤) نفس المرجع ص ٦١/٥٥.

- (١٥) ساويرس بن المفتح - تاريخ البطارقة المجلد الأول (من مارمرقص حتى البابا يوساب ٥٢) ص ١٩-٢٥.
- (١٦) البانا شنودة الثالث - مرجع سبق ذكره ص ٣١.
- (١٧) هارولدبل - مرجع سبق ذكره ص ١١٦.
- (١٨) د. حسين فوزى مرجع سبق ذكره ص ٣٦-٣٧.
- (١٩) د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سبق ذكره ص ٢٧-٢٨.
- (٢٠) أحمد صادق سعد - مرجع سبق ذكره ص ١٢٢/١٢٣.
- (٢١) تقرير الحالة الدينية فى مصر ١٩٩٥- مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بجريدة الاهرام الطبعة الرابعة ١٩٩٦ ص ٨١.
- (٢٢) د. سعيد عند الفتاح عاشور - مرجع سبق ذكره ص ٤٨-٥٠.
- (٢٣) ياروسلاف تشيرنى - مرجع سبق ذكره ص ٢١٢/٢١٥.
- (٢٤) د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سبق ذكره ص ٣٠-٣٣.
- (٢٥) الأنبايوانس - الاستشهاد فى المسيحية - الطبعة الثالثة سبتمبر ١٩٨١ - مكتبة مارمرقص بالكنيسة المرقسية الكبرى بالازبكية ص ٥٤-٦٣.
- (٢٦) نفس المرجع ص ٦٤-٨٤.
- (٢٧) د. آمال الروبى - مرجع سبق ذكره ص ١٣١-١٣٢.
- (٢٨) الأنبايوانس - مرجع سبق ذكره ص ٦٤-٨٤.
- (٢٩) أ- د. آمال الروبى - مرجع سبق ذكره ص ١٥١-١٥٢.
- ب- د. ليلى عبد الحواد مرجع سبق ذكره ص ٣٣-٣٤.
- ج- الأنبايوانس مرجع سبق ذكره ص ٦٤-٨٤.

- 
- (٣٠) أ - د. ليلى عبد الجواد مرجع سبق ذكره ص ٣٤-٣٥.
- ب - د. آمال الروبي مرجع سبق ذكره ص ١٥١-١٥٢.
- (٣١) د. آمال الروبي نفس المرجع ص ١٥٢-١٥٣.
- (٣٢) نفس المرجع ص ١٥٣/١٥٤.
- (٣٣) د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سابق ص ٣٩-٤٠.
- (٣٤) الانبياؤانس - مرجع سبق ذكره ص ٦٢-٨٤.
- (٣٥) ساويرس بن المقفع - مرجع سبق ذكره ص ٥٤-٦٣.
- (٣٦) المرجع السابق ص ٥٤/٦٣.
- (٣٧) أ- القس منسى يوحنا تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة ١٩٨٣ ص .  
ب - جون لوريمر - تاريخ الكنيسة الجزء الثانى - دار الثقافة المسيحية طبعة ١٩٨٥-١١٤-١١٥.
- (٣٨) د. حسين فوزى - مرجع سبق ذكره ص ٣٦.
- (٣٩) د. ليلى عبد الحواد إسماعيل - مرجع سبق ذكره ص ٤١/٤٤.
- (٤٠) ساويرس بن المقفع - مرجع سبق ذكره ص ٥٤-٦٣.
- (٤١) هارولدندل - مرجع سبق ذكره ص ١٤٥-١٥٠.
- (٤٢) أ- د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - مرجع سبق ذكره ص ٦٣-٦٤.
- ب - أحمد صادق سعد - مرجع سبق ذكره ص ١٢٩/١٣٠.
- ج- جون لوريمر - مرجع سبق ذكره ص ٣٠/١٥٢.
- (٤٣) د. حسين فوزى - مرجع سبق ذكره ص ٣٩-٤٠.
- (٤٤) تقرير الحالة الدينية - مرجع سبق ذكره ص ١١٣.

- 
- (٤٥) د. ليلى عبد الجواد - مرجع سبق ذكره ص ٧٥-٨١.
- (٤٦) د. طاهر عبد الحكيم - مرجع سبق ذكره ص ٨٨.
- (٤٧) د. حسين فوزى - مرجع سبق ذكره ص ٣٩-٤٠.
- (٤٨) أحمد صادق سعد - مرجع سبق ذكره ص ١٢٥.
- (٤٩) ايريس حبيب المصرى - تاريخ الكنيسة القبطية ج ٢ من عام ٤٣٥-٩٤٨ -  
الطبعة الثانية ١٩٧٦ ص ١١.
- (٥٠) تقرير الحالة الدينية - مرجع سبق ذكره ص ١٣٤.
- (٥١) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٢٧.
- (٥٢) تقرير الحالة الدينية - مرجع سبق ذكره ص ١٣٤.
- (٥٣) هارولد بل - مرجع سبق ذكره ص ١٥١-١٥٢.
- (٥٤) د. حسين فوزى - مرجع سبق ذكره ص ٣٦.
- (٥٥) تقرير الحالة الدينية - مرجع سبق ذكره ص ٨٣.
- (٥٦) جون لوريمر تاريخ الكنيسة - ج ٢ ص ٤٥.
- (٥٧) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٢٠/١٩.
- (٥٨) انظر :
- أ - منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٤٩/٢٤.
- ب - جون لوريمر ج ٢ ص ٤٥-٧٢.
- (٥٩) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ١٠٧-١٠٨.
- (٦٠) جون لوريمر - مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ١٤٩.
- (٦١) نفس المرجع ج ٣ ص ٢١-٣٤.

- 
- (٦٢) نفس المرجع ث ٢١-٣٤/  
 (٦٣) هارولد بيل مرجع سبق ذكره ص ١٤٣-١٤٤.  
 (٦٤) نفس المرجع.  
 (٦٥) د. ليلي عبد الجواد إسماعيل مرجع سبق ذكره ص ٤٨-٥٤.  
 (٦٦) نفس المرجع.  
 (٦٧) هارولد بيل - مرجع سبق ذكره ص ١٥٢-١٥٣.  
 (٦٨) جون لوريمر مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٧١.  
 (٦٩) نفس المرجع ص ٧٣-٧٨.  
 (٧٠) د. رأفت عبد الحميد - الدولة والكنيسة ج ٢ (أنايسوس) طبعة ١٩٨٠ ص ٣٢٩-٣٣٠.  
 (٧١) جون لوريمر - مرجع سابق ج ٢ ص ٧٦.  
 (٧٢) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٢٠١-٢٠٨.  
 (٧٣) نفس المرجع.  
 (٧٤) سعيد عند الفتاح عاشور - مرجع سبق ذكره ص ٦٤-٦٦.  
 (٧٥) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ١٤٨.  
 (٧٦) نفس المرجع ص ١٥٠.  
 (٧٧) رأفت عبد الحميد - ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي - كتاب  
 رزوايوسف العدد ١١- يناير ١٩٧٤ - ص ١٢٩-٣٠.  
 (٧٨) نفس المرجع ص ١٣٣.  
 (٧٩) منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٢١٩.
-

- 
- (٨٠) رأفت عبد الحميد - ملامح الشخصية ص ٣٧-١٣٩ .
- (٨١) نفس المرجع ص ١٤١ .
- (٨٢) إيريس حبيب المصري - مرجع سبق ذكره ص ١١٥-١١٧ .
- (٨٣) أ- إيريس حبيب المصري - مرجع سبق ذكره ص ١٨ .
- ب- رأفت عبد الحميد - مرجع سبق ذكره ص ١٤١ .
- ج- جون لوريمر - مرجع سبق ذكره ص ٢٢٤ .
- د- منسى يوحنا - مرجع سبق ذكره ص ٢٢٦ .
- (٨٥) نفس المراجع على التوالي :
- ص ١٨-٣٩
- ص ١٤٢-١٤٤ .
- ص ٢٢٤-٢٢٥ .
- ص ٢٢٧-٢٣٤ .
- (٨٦) هارولد بل - مرجع سبق ذكره ص ١٥٤ .
- (٨٧) رأفت عبد الحميد - مرجع سبق ذكره ص ١٤٤ .
- (٨٨) أ- رأفت عبد الحميد - مرجع سبق ذكره ص ١٤٢-١٥١ .
- ب- جون لوريمر ج ٣ ص ٢٢٣-٢٢٨ .
- ج - إيريس حبيب المصري ص ١٤-٣٩ .
- د- منسى يوحنا ص ٢٢٥-٢٣٩ .
- (٨٩) نفس المراجع السابقة على التوالي :
- ص ٣٠٣ - ٣٠٦ + ٣١١-٣١٢

---

ج ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .

ص ١٧٣ - ٢٠٥ .

ص ٢٧٦ - ٢٨٠ + ٢٨٧ - ٢٩٢ .

(٩٠) هارولدبل - مرجع سبق ذكره ص ١٧٣ .

(٩١) نفس المرجع ص ١٧٤ .





## الأسماء بالحروف الأفرنجية

Athanasius the Apostolic	القديس أنثاسيوس الرسولي
Justinian (527-565)	الإمبراطور جستنيان
Theodosius	الإمبراطور ثيودوسيوس
Theophilus	ثيوفيلوس
Marcian	الإمبراطور ماركيان (٤٤٥-٤٥٧)
Pulcheria	الإمبراطورة بولشيريا (بولحاريا) زوجة الإمبراطور ماركيان.
Maximian	الإمبراطور مكسيمان (٢٨٦-٣٠٥)
Eutyches	أوطاخي
Nicoea	نيقية
Constantinople	القسطنطينية
Ephesus	أفسس
Cyril	كيرلس
Dioscorus	ديوسقورس
Pope heo	ليو (بابا روما)
Nestorianism	النطورية
Theodora	ثيودورا (زوجة جستنيان - تميل إلى مذهب الطبيعة الواحدة).

---

Trier	تريير (نفي إليها القديس أناسيوس من ٣٣٩-٣٤٦م).
Gangara	حانجرا (نفي إليها القديس ديوسقورس سنة ٤٥٤م).
Monophysite	المونوفيزي، مذهب الطبيعتين والمشية الواحدة، Monothelism.
Diophysite	مذهب الطبيعتين
Proterius	بروتيريوس
Timothy	تيموثيوس
Zeno	زينو
Anastasius	انستاسيوس (من سنة ٤٩١-٥١٨م)
Severus of Antioch	ساويرس الأنطاكي
Yohn of Tabenna	يوحنا الطيبى
Yustin	جستين (من ٥١٨-٥٢٧)
Apollinarius	أبولليناريوس (بطريك ملكانى عين على مصر من قبل جستنيان) سنة ٥٤١م
Heraclius	هرقل (عامر الفتح الفارسى للتمام ومصر - استعاد الصليب المقدس) (عامل الفتح العربى).

---

---

Phocas	فوكاس (حكم مصر في عهد هرقل (من ٦٠٢-٦١٠).
Cyrus	المقوقس (وصل مصر سنة ٦٣١ م على يديه استشهد الشهيد ميناى شقيق البابا بنبامين.
Melkites	الملكانيون خطأ تاريخي : إطلاق لقب عظيم القبط على المقوقس خطأ تاريخي لأنه أسقف غريب عن مصر فرضه الامبراطور هرقل على كنيسة الإسكندرية ومنحه السلطة الإدارية والسلطة الدينيّة فأنزل بأقباط مصر عذابا شديدا.
Chalcedon	خلقيدونية
Benjamin	البابا بنيامين (بابا الإسكندرية من ٦٣٣-٦٦٢ م) (عاصر الفتح العربى).
Manetho	مانثون



## فهرس المحتويات

١	مقدمة.....أمير سالم	٧
٢	تقديم.....د. يونان لبيب رزق	١٣
٣	مراجعة.....د. سليمان نسيم	١٧
٤	مقدمة المؤلف.....	٣٥
٥	الفصل الأول.....	٤٣
	تاريخ مصر القبطية .. لماذا الآن ؟	
٦	الفصل الثانى.....	٥٥
	التكوين الثقافى والروحى بين الطبيعة والدولة فى مصر.	
٧	الفصل الثالث.....	٩١
	الإحتلال الإغريقى الرومانى وأثره فى الثقافة والدين فى مصر القديمة	
٨	الفصل الرابع.....	١٢٣
	المصريون يعمدون بالدم ، مصر منذ منتصف القرن الأول الميلادى وحتى دخول العرب .	



## صدر عن مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان

١	دفاعاً عن حق تكوين الجمعيات	أمير سالم
٢	حقوق الإنسان وتأخر مصر	مجموعة من الكتاب
٣	دستورية حقوق الإنسان	د. وجدي ثابت غبريال
٤	خرافة التنمية أو السوق العالمي لقجارة الجوع.	أمير سالم - د. علاء غنام
٥	البنك الدولي والحكومات وحقوق الإنسان.	اللجنة الدولية للمحامين الأمريكيين
٦	حقوق الإنسان معارك مستمرة	أمير سالم
	بين الشمال والجنوب	
٧	المواطنة المنقوصة تهمة المرأة في مصر،	د. مارلين تادرس
		عبد العزيز الشبيني
		أميرة عبد الحكيم
٨	حرية الإبداع وحقوق المبدعين	مجموعة المنتدى الأول
٩	محكمة سياء الدولية لمحاكمة	أمير سالم
	مجرمي الحرب الإسرائيليين	محمد عبد العال

١٠	الريشة ضمير الوطن	مجموعة من رسامي الكاريكاتير
١١	مولد يا دنيا «كاريكاتير عن الانتخابات»	رؤوف
١٢	عالم بلا أغلال	جلال الجميعي
١٣	المرأة الأفريقي بين الحكم والدين	د. محبوب التيجاني
١٤	الفعل التفاضلي في سبيل الحرية	تأليف باولو فريدي ترجمة إبراهيم الكردي
١٥	التاريخ الفكري والسياسي للإعلان	تأليف أنبير باييه ترجمة د. محمد مندور
١٦	العالمي لحقوق الإنسان	د. محمد أبو الاسعاد
١٧	السعودية والاحوان المسلمون	د. محبوب التيجاني
١٨	الدين والدولة في السودان	سليمان فياض
١٩	نبلاء وأوباش	تقرير
٢٠	تقرير عن ورشة العمل الأفريقية لتعليم حقوق الإنسان	مجموعة المنتدى
	إرهاب الفكر وحرية الابداع	



٢١	التعصب الدينى بين إرهاب الصحافة	الفكرى الثانى
	وصحافة الإرهاب	أ. أسامة خليل
٢٢	تقرير واقع الطفل المصرى	
	فى نهاية القرن العشرين	د. عماد صيام
٢٣	الشرق الآخر «رواية»	
٢٤	الحركة الإسلامية	أ. أسامة خليل
٢٥	السينما والتربية	د. كمال حامد مغيث
٢٦	حماية البيئة فى مصر	د. أحمد يوسف سعد
٢٧	أحكام القضاء المصرى	تحرير د. علاء غنام
		مركز الدراسات
		والمعلومات القانونية
٢٨	الشرع الإسلامى	لحقوق الإنسان
٢٩	تعليم حقوق الإنسان	د. محجوب التيجانى
٣٠	تعليم الحق وحق التعليم	د. كمال حامد مغيث
٣١	مصر فى العصر العثمانى	تحرير د. عماد صيام

---

د. كمال حامد مغيث	سدوم سدوم «رواية»	٣٢
د. مارلين تادرس	تأشيرة خروج «مسرحية»	٣٣
أ. بهيج إسماعيل	المجتمع المدني والصراع الاجتماعي	٣٤
أ. صلاح العمروسي	الحرب الأهلية في نقابة المحامين	٣٥
أ. مصطفى عويس		
المحامى	الأصولية الإسلامية	٣٦
د. صادق جلال العظم	العلمانية في مصر	٣٧
أ. صابر نايل	موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة	٣٨
د. رمسيس عوض	الن بين العمامة والدولة	٣٩
أ. على أبو شادى		
أ. كمال رمزى		
د. مارلين تادرس		

## مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان

### أهداف وأنشطة المركز :

- تنظيم دورات التعليم الشعبي لحقوق الإنسان.
- القيام بالأبحاث والدراسات القانونية عن الفوانين المصرية التي تتعارض مع الدستور المصرى والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان.
- توثيق وجمع المعلومات والأبحاث والدراسات سواء التى أعدها المركز أو المتوافرة بالتعاون مع مراكز أخرى سواء كانت أكاديمية أو من منظمات لحقوق الإنسان محلية أو عربية أو دولية.
- توثيق المعلومات والتقارير والأبحاث والمواثيق الصادرة عن الأمم المتحدة أو إحدى منظماتها أو لجانها المختلفة فيما يتعلق بحقوق الإنسان.
- تكوين مكتبة متخصصة فى حقوق الإنسان تحوى المراجع والدوريات والنشرات المصرية والعربية والدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.
- تنظيم ندوات بين المعنيين والمهتمين بحقوق الإنسان من أجل مزيد من البحث والتثقيف بحقوق الإنسان.

يتعاون المركز في سبيل ذلك مع كافة الأفراد والمنظمات غير الحكومية المحلية والعربية والدولية، وكذلك أجهزة الأمم المتحدة خاصة مركز حقوق الإنسان. ويتلقى في سبيل ذلك المشورة والدعم والتدريب وكافة المساعدات التقنية لتحقيق أهداف المركز.



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٨ / ١٤٣٥٠

---

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

١١/٧ - 5421 - 26 - 8





023

.

